كلمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

السيد هاشم الموسوي

كلمة المركز

القرآن الكريم هو مصدر الشريعة الالهية ورسالة اللّه الاخيرة للانسان، ولانه الرسالة الخالدة فقد تعامل معه المسلمون على مر الاجيال فكان النبع والمصدر فيالتشريع واستنباط الاحكام..

ولكن اذا كان القرآن هو النص المكتوب بلغته العربية وبنسخته الوحيدة المتفق علىسلامتها لدى جميع المسلمين فلماذا حدثت كل هذه الاختلافات، ولماذا ظهرت مختلف الاتجاهات الفكرية والعقيدية؟!

فالمشكلة اذن تعود الى تعدد الوسائل والرؤى في التعامل مع القرآن وقراءته..وتكمن في فهم النص القرآني واكتشاف الحقيقة المستورة.

كان الرسول(ص) هو الذي يفسر القرآن للذين آمنوا به واتبعوه..

وبعد التحاقهبالرفيق الاعلى.. من الذي سينبري للنهوض بهذه المهمة؟

كثيرون تلقوا الايات في زمن النبي(ص) وعرفوا دلالات بعض نصوص القرآن،ولكن هل كانوا متساوين في الوعي والادراك؟

وهل تلقوا تفسير القرآن كله؟

ان منطق العقل يؤكد ان اكثر الناس قربا من النبي(ص) هم اهل بيته.. وهذا ابن عمهعلي بن ابي طالب الذي نشا في احضان النبي(ص).. وتشرب كلماته قبل البعثةوبعدها، فاهل البيت(ع) تشربوا آيات القرآن وادركوا اسراره، ولقد قال اللّه تعالىفي القرآن (لا يمسه الا المطهرون).

وقال سبحانه ايضا: (انما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركمتطهيرا).

فهناك اذن آصرة قوية تجمع بين القرآن الكريم واهل البيت(ع). وهي الاصرة التياشار النبي(ص) اليها بقوله: «اني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي اهلبيتي».

وهذه الاصرة لاتتوقف ولا تنتهي وانما تمتد لتواكب حركة الزمن، فالقرآن الكريمرسالة اللّه يشرحها النبي(ص) وآل النبي(ص) وفي غير هذه الحالة سوف تتاثرالقراءة كنص موضوعي

بالحالة الذاتية للقارىء والمفسر وما يرتبط بها منمستويات الوعي والادراك والرؤية

الشخصانية.

هذا ويسر مركز الغدير ان يقدم الى القارىء الكريم هذه الدراسة الوافية فيموضوع حساس

ومصيري متمنيا للجميع اكتشاف الحقيقة والسير في طريق الحق.

مركز الغدير

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين.

(ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم)

لم تشهد البشرية في تاريخ حياتها حدثا على سطح هذا الكوكب كحدث نزول القرآن،ولم

يكن من وصل بين عالم الغيب والشهادة يستضاء به في دنيا الانسان غير نورالوحي

المستودع في كتاب اللّه الحق.

هبط القرآن وحيا على الهادي محمد(ص) لينير الدرب ويهدي اجيال الانسان.

وهكذا كان فقد حدثت المعجزة واكتمل الوحي، وحمل النبي(ص) كلمة اللّه يؤازرهمن آمن

وصدق، يبشرون بها لانقاذ الانسان من ظلمات الجهل والجاهلية، وتحطيمالطاغوت، واحداث

عملية التغيير الشامل، فكان القرآن منطلق الحضارة، ومبعثالنور، وداعية العلم والعقل.

لقد احدث القرآن انقلابا فكريا وحضاريا عميقا وشاملا في حياة البشرية، وقاد الانسان في طريق العقل والعلم والاخلاق، فحقق بذلك انسانية الانسان، وعلمه كيفيفكر تفكيرا علميا، وكيف يحيى انسانا اخلاقيا.

وهذا الوحي الالهي الذي حوى بين جنبيه كنوز العلم، وآفاق المعرفة، قد جاء خطابابلغة الانسان، وكانت بيئة الخطاب، ولسان النبي المخاطب، هي العربية، وهي ارقى ماعرف الانسان من لغات التعبير، فكان النص الالهي بصياغته العربية المعجزة موضعاهتمام المسلمين، حفظا وقراءة وتفسيرا، منذ عهد النبوة وجيل الصحابة والتابعين،وحتى يومنا الحاضر، وسيمتد ويتصاعد هذا الاهتمام كلما تقدم الانسان في فتوحاتالعلم، واستنار عقله ووعيه.

لقد حفظ اللّه سبحانه هذا القرآن من التحريف والتزييف، وتعهد بذلك بقوله سبحانه: (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

لقد آمن المسلمون ان القرآن هو مصدر الفكر والاحكام والتشريع، فمنه يستوحيالانسان اصول العقيدة، وتستنبط احكام الشريعة، ومفاهيم الحضارة، ومنهاج الحياة، ومعايير السلوك والاخلاق.

وعلى امتداد آفاق الاتجاهات الفكرية والمنهجية، امتد التعامل مع القرآن، والاستدلالبه بشكل

افرز مناهج ومذاهب متعددة ومتباينة للتعامل مع القرآن وفهم دلالته، ومن‌هنا حدثت المشكلة الفكرية الكبرى بين المسلمين مشكلة فهم القرآن، والاستنباطمنه، وتحديد الضوابط والمراجع التي يصار اليها عند وقوع الخلاف لحسمه.

وكان الرسول(ص) في عصر الوحي والدعوة، هو المبلغ والمبين لما خفي من كتاباللّه تعالى، فتلقى عنه جيل الصحابة هذا البيان والتفسير عن طريق القول والفعل، غيران درجات الفهم والتلقي تختلف من صحابي لاخر، لذا برز منهم قراء ومفسرونومفتون، امثال اءبي وعبد اللّه بن مسعود، وعبد اللّه بن عباس وغيرهم، ومما اءجمع‌المسلمون عليه ان اعلم المسلمين بالكتاب والسنة بعد رسول اللّه(ص) هو الامام‌علي(ع)، لذا آمنت شيعة آل البيت(ع) ان المرجع في فهم القرآن بعد النبي(ص) هوالامام علي(ع)، ويؤكد هذه الحقيقة قول رسول اللّه(ص): «اني اوشك ان ادعىفاءجيب واني تارك فيكم الثقلين، كتاب اللّه (عزوجل) وعترتي، كتاب اللّه حبل ممدودمن السماء الى الارض، وعترتي اهل بيتي، وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقاحتى يردا علي الحوض، فانظروا بم تخلفوني فيهما».

كما جاء في الروايات الصحاح ان رسول اللّه(ص) قرا الاية الكريمة (وتعيها اذنواعية) ثم التفت الى علي فقال: «سالت اللّه ان يجعلها اذنك».

فقال علي(ع): «فما سمعت شيئا من رسول اللّه فنسيته».

وحين تعددت المذاهب والاراء والمدارس الفكرية برزت مدرسة اهل البيت(ع)منارا يضيء الدرب

للسائرين ومنهلا ياوي اليه رواد العلم والحقيقة: وكتابنا هذا(القرآن في مدرسة اهل البيت(ع)) هو محاولة فكرية للتعريف بالمنهج الذياستوحاه العلماء من علوم ومعارف اهل البيت(ع) في فهم القرآن والاستفادة منه.

ومن المفيد ان نعرف اذا بالعنوان الذي اخترناه لهذا الكتاب، وهو: (القرآن فيمدرسة اهل البيت(ع)).

ان المقصود باهل البيت(ع) هم علي وفاطمة والحسن والحسين والائمة من ذريةالحسين، وهم علي بن الحسين (السجاد) ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمدالصادق، وموسى بن جعفر الكاظم، وعلي بن موسى الرضا، ومحمد بن علي الجواد،وعلي بن محمد الهادي، والحسن بن علي العسكري، ومحمد بن الحسن المهديعليهم السلام جميعا.

وما نقصده بمدرسة اهل البيت(ع) هو ذلك الصرح العلمي والمنهجي الشامخ الذيشاده ائمة اهل البيت(ع) على اساس الكتاب والسنة، وتوارثوه ابنا عن اب عن رسولاللّه(ص).

وذلك ما يوضحه قول الامام الصادق(ع): «حديثي حديث ابي، وحديث ابي حديثجدي، وحديث جدي حديث ابيه، وحديث ابيه حديث علي بن ابي طالب، وحديثعلي حديث رسول اللّه(ص) وحديث رسول اللّه(ص) قول اللّه عزوجل».

وقول الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) للسائل الذي ساله:

«بم يفتي الامام، قال:بالكتاب، قال: فان لم يجد، قال بالسنة،...».

وقول الامام الباقر(ع): «يا جابر لو كنا نفتي الناس برايانا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكنانفتيهم بثار من رسول اللّه(ص) واصول علم عندنا، نتوارثها كابرا عن كابر، نكنزهاكما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم».

وهكذا فان الاساس الذي بنى عليه ائمة اهل البيت(ع) العلوم والمعارف الاسلاميةالتي افاضوها هو الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

وهكذا نفهم ايضا ان الكتاب العزيز هو المصدر الاول في علوم ومعارف هذه المدرسةالعلمية الخالدة.

وكما هو واضح فان فهم الكتاب والاستنباط منه استنباطا معبرا عما يحوي الكتاب منعلم واقعي يحتاج الى احاطة علمية كاملة وسلامة منهج، لذا كان من جملة ما افاضهائمة اهل البيت(ع) من علم ومعرفة هو علم التفسير والتاويل، ومنهج فهم القرآن.

وجدير ذكره ان ائمة اهل البيت(ع) قد اسسوا منهج فهم القرآن على اساس من القرآنذاته.

وحين تعددت مناهج الفهم ومذاهب الاستفادة والاستنباط من القرآن بعد رحيلالرسول الاكرم محمد(ص) تصدى ائمه اهل البيت(ع) ومن لدن علي، وحتىآخرهم لمهمة تفسير القرآن وبيان مافيه من فقه وعلوم ومعارف.

وقد حاولنا في كتابنا هذا (القرآن في مدرسة اهل البيت(ع)) ان نتبع المنهجالعلمي في عرض

الاراء والتعريف بوجهات النظر المتعددة حول قضايا القرآنوطريقة فهمه، لنعرف بمنهج اهل البيت(ع) او قل بمنهج القرآن، في فهم القرآن،لنساهم في خدمة هذا الكتاب الالهي الخالد، وتكوين الرؤية العلمية لفهم القرآن،فنحن احوج ما نكون الى فهم الاسس السليمة للتعامل مع القرآن، وفهم دلالته.

سائلين المولى العلي القدير ان يتقبل هذا الجهد، ويسدد للصواب بمنه، انه سميع مجيب.

المؤلف

٧ / جمادى الاولى / ١٤١٩ هـ

الوحي

تعريف الوحي:

الوحي في اللغة: عرف اللغويون الوحي بقولهم: «اصل الوحي: الاشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: امر وحي، وذلك يكون بالكلام، وعلى سبيل الرمز والتعريض،وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وباشارة بعض الجوارح وبالكتابة... ويقالللكلمة الالهية التي تلقى الى انبيائه واوليائه وحي . وذلك اضرب حسبما دل عليهقوله(وما كان لبشر ان يكلمه اللّه الا وحيا...) الى قوله (باذنه من يشاء).

وذلك اما برسول مشاهد ترى ذاته، ويسمع كلامه، كتبليغ جبريل(ع) للنبي في صورةمعينة، واما

بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى(ع) كلام اللّه، واما بالقاء فيالروع، كما ذكر عليه الصلاة والسلام: ان روح القدس نفث في روعي، واما بتسخيرنحو قوله: (واوحى ربك الى النحل)، او بمنام كما قال عليه الصلاة والسلام: «انقطعالوحيوبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن، فالالهام والتسخير والمنام...»(١).

وعرف الشيخ المفيد الوحي فقال: (اصل الوحي هو الكلام الخفي، ثم قد يطلق علىكل شيء قصد به الى افهام المخاطب على السر له عن غيره، والتخصيص له به دون منسواه، واذا اءضيف الى اللّه تعالى كان فيما يخص به الرسل(ص) خاصة دون من سواهمعلى عرف الاسلام وشريعة النبي...)(٢).

وتحدث المفسر الامامي الكبير الطبرسي عن الوحي فعرفه بقوله: (الايحاء: هو القاءالمعنى الى الغير على وجه يخفى، والايحاء الارسال الى الانبياء، نقول اوحى اللّه اليه،اي ارسل اليه ملكا. والايحاء الالهام، ومنه قوله تعالى: (واوحى ربك الى النحل).

وقوله: (بان ربك اوحى لها): معناه القى اليها معنى ما اراد منها، قال العجاج: اوحىاليها القرار فاستقرت. وشدها بالراسيات الثبت.

والايحاء: الايماء، قال: فاوحت الينا والانامل رسلها.

ومنه قوله تعالى: (فاوحى اليهم ان سبحوه بكرة وعشيا) اي اشار اليهم. والوحيالكتابة. قال رؤبة: لقدر كان وحاه الواحي. وقال: في سور من ربنا موحية. والقلم الذييكتب به. والقلم الذي يجال بين القوم)(٣).

وبهذا الاستعراض من اساطين العلم واللغة، نعرف ان معنى الوحي في اللغة، هو القاءالمعنى الى الغير بطريقة السر والخفاء بين الملقي، والملقى اليه.

الوحي في الاصطلاح:

وكلمة الوحي هي مصطلح قرآني من اعرق واهم المصطلحات الاسلامية في مجالالفكر والعقيدة، ويشكل الايمان به القاعدة الاساسية للايمان بالانبياء والرسل(ع)،وقد استعملها القرآن بهذا المعنى في موارد عديدة، كما جاءت في السنة المطهرةوعلى السن العلماء الاسلاميين، وهو الوحي الى الانبياء والرسل.

وهو المعنى المتبادر الى ذهن الانسان المسلم من استعمال هذه الكلمة، كقوله تعالى:(ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه).

وكقوله تعالى: (واءوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ)(٤).

وقد اوضح الشيخ المفيد الاستعمال الاصطلاحي لكلمة وحي بقوله: (اذا اضيف«الوحي» الى اللّه تعالى كان فيما يخص به الرسل صلى اللّه عليهم خاصة دون من سواهم على عرف الاسلام وشريعةالنبي(ص)(٥).

وهذا الصنف من الوحي الالهي الى البشر قد انقطع بوفاة نبينا محمد(ص) ولتاكيد هذاالمعتقد الضروري في الاسلام قال الشيخ المفيد: (...والاتفاق على انه من زعم ان احدابعد نبينا محمد(ص) يوحى اليه فقد اخطا وكفر، ولحصول العلم بذلك من دينالنبي(ص)...)(٦).

ثم يوضح المعنى الاصطلاحي للوحي، ويفصله عن غيره، رغم استعمال نفس اللفظبقوله: (وقد يري اللّه سبحانه وتعالى في المنام خلقا كثيرا ما يصح تاويله، وتثبتحقيقته، لكنه لا يطلق بعد استقرار الشريعة عليه اسم الوحي، ولا يقال في هذا الوقتلمن طبعه اللّه على علم شيء انه يوحى اليه...)(٧).

وقد جاء في توضيح المعنى الاصطلاحي ايضا:

(واما تفسير وحي النبوة والرسالة فهو: قوله تعالى: (انا اوحينا اليك كما اوحينا الىنوح والنبيين

من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل(٨)...)(٩).

وهكذا يتضح الاستعمال الاصطلاحي لكلمة وحي، ويفترق عن الاستعمالاتالاخرى التي تنطبق على غير الانبياء، كما يتضح ذلك.

الوحي في القرآن:

لقد استعمل القرآن الكريم كلمة الوحي في معان عديدة، وهذه الاستعمالات هي:

١ استعمل القرآن الكريم كلمة وحي بمعناها الاصطلاحيكما اشرنا اليه آنفا.

٢ استعمل القرآن الكريم كلمة وحي بمعنى الالقاء في نفوس بعض العباد من غيرالانبياء، كالقاء اللّه سبحانه ما اراد القاءه في نفس ام موسى والهامها.

قال تعالى: (واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافيولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)(١٠).

وقد نقل الشيخ المفيد تفسير هذا اللون من الوحي بقوله عند تفسير الاية الانفة الذكر:(فاتفق اهل الاسلام على ان الوحي كان رؤيا، او كلاما سمعته ام موسى في منامها علىالاختصاص)(١١).

وكالقائه سبحانه في نفوس الحواريين ليؤمنوا بعيسى الذي صوره بقوله: (واذ اوحيتالى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي...)(١٢).

ونقرا تفسيرا آخر لكلمة الوحي بمعنى الهام بعض الناس او توجيه بعض الخلائق،فقد نقل العلا مة المجلسي من تفسير النعماني مانصه:

«واما وحي الالهام فهو قوله عزوجل: (واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبالبيوتا ومن الشجر ومما يعرشون). ومثله: (واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذاخفت عليه فالقيه في اليم...)(١٣)».

وقد اشار الشيخ المفيد الى ان هذا اللون من الالقاء يحصل لائمة اهل البيت الهداة(ع)لما اتصفوا به من طهارة الذات، وصفاء النفس، وكمال التقوى، والتوجه الى اللّهسبحانه، على ان هذا الالقاء كما يوضح الشيخ المفيد ليس هو القاء احكام او تشريع،فان ذلك منقطع بعد النبي(ص) ولا يصح القول به.

قال رحمه اللّه: (وعندنا ان اللّه يسمع الحجج بعد نبيه كلاما يلقيه اليهم في علم ما يكون،لكنه لا يطلق عليه اسم الوحي، لما قدمناه من اجماع المسلمين على انه لا وحي الىاحد بعد نبينا، وانه لا يقال في شيء مما ذكرناه انه وحي الى احد)(١٤).

فهذا الصنف من الالقاء الذي اشار اليه الرسول(ص) واجمع المسلمون على حصولهلغير الانبياء يتحقق للاولياء في المنام والالهام والرؤيا، وغير ذلك من المبشرات التيذكرها الحديث النبوي الشريف.

٣ استعمل القرآن كلمة (الوحي) بمعنى الوسوسة والالقاء الخبيث في النفس، وقدجاء هذا الاستعمال في قوله تعالى: (وان الشياطين ليوحون الىاوليائهم...)(١٥).

وبقوله: (يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا...).

٤ واستعمل القرآن كلمة الوحي بمعنى الاشارة المفهمة افهاما خفيا للمراد.

فقد جاء هذا الاستعمال في وصفه تعالى لاشارة النبي يحيى(ع) الى اصحابه، قالتعالى: (فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم...)(١٦).

٥ الايحاء بمعنى التسخير و وضع النظام التكويني من قبل اللّه تعالى لتسير وفقه عوالمالطبيعة والمادة والاحياء. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: (فقضاهن سبع سماواتفي يومين واوحى في

كل سماء امرها)(١٧).

(واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون)(١٨).

صور الوحي الى الانبياء:

قال تعالى: (وما كان لبشر ان يكلمه اللّه الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم# وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا...)(١٩).

لقد تحدث القرآن الكريم عن حالات عديدة للالقاء الالهي وحالات الوحي الى الانبياء التي يتلقاها الانبياء بوعي ووضوح كامل لما يريد اللّه سبحانه ان يلقيه اليهم.

وهذه الحالات هي:

١ الوحي المباشر: لقد حظي بعض الانبياء بالحديث الالهي المباشر، والقاء الكلمة اليهم، واسماعهم من غير واسطة الملك(ع) وقد وصف الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) هذا الصنف من الوحي الذي تلقاه نبينا محمد(ص) بقوله: «كان رسول اللّه(ص) اذا اتاه الوحي وبينهما جبرئيل(ع) يقول: هو ذا جبرئيل، وقال لي جبرئيل،واذا اتاه الوحي، وليس بينهما جبرئيل، تصيبه تلك السبتة(٢٠)، ويغشاه منه ما يغشاه، لثقل الوحي عليه من اللّه عزوجل»(٢١).

وروى زرارة قال: «قلت لابي عبد اللّه(ع) جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول اللّه(ص) اذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال: ذلك اذا لم يكن بينه وبين اللّه احد،ذاك اذا تجلى اللّه له، قال: ثم قال: تلك النبوة يازرارة»(٢٢).

ويصف الشيخ المفيد هذه الحالة فيقول: (فاما الوحي من اللّه تعالى الى نبيه(ص) فقد كان تارة باسماعه الكلام من غير واسطة...)(٢٣) ومثاله ما كلم اللّه به النبي محمدا(ص) في معراجه المبارك عند سدرة المنتهى(٢٤).

وهذه المباشرة لا تعني زوال الحجاب الذي يكلم من ورائه البشر، كما ذكر اللّه سبحانه ذلك.

٢ الوحي بواسطة الملك جبرئيل: وهذا اللون من الوحي هو الوحي المالوف فيالرسالات، وبه نزلت الكتب والشرائع، فقد جعل اللّه جبرئيل(ع) وسيطا لايصالرسالاته الى الانبياء(ع).

قال اللّه تعالى: موضحا نزول القرآن على نبينا محمد(ص) بواسطة جبرئيل(ع):(نزل به الروح الامين. على قلبك لتكون من المنذرين)(٢٥).

وقال سبحانه: (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن اللّه...)(٢٦).

٣ الوحي بواسطة الرؤيا: ومن صور الوحي للانبياء هو الرؤيا الصادقة التي يريها اللّهسبحانه لانبيائه ورسله(ع).

وقد تحدث القرآن عن رؤيا ابراهيم ويوسف ومحمد(ص)، نذكر منها حديث القرآنعن الرؤيا التي اراها اللّه سبحانه لنبيه في دخول المسجد الحرام، وتحقيق النصر له.

قال تعالى: (لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء اللّهآمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاقريبا)(٢٧).

(واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناسوالشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا)(٢٨).

وروى الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) حين سئل: كم تتاخر الرؤيا؟ قال: «راىرسول اللّه(ص) في منامه كان كلبا ابقع يلغ في دمه فكان، اي ذلك الكلب الابقع شمرا،قاتل الحسين، وكان ابرص، فكان تاخير الرؤيا بعد خمسين سنة»(٢٩).

وورد عن الامام علي بن ابي طالب(ع) قوله: «رؤيا الانبياء وحي».

ويوضح الامام الصادق(ع) ان صنفا من الانبياء يتلقون وحيهم عن طريق الرؤيا، فقدروي عنه قوله في هذا الصنف من التلقي: «...الرسول الذي ياتيه جبريل قبلا فيراهويكلمه، فهذا الرسول. واما النبي فهو الذي يرى في منامه. نحو رؤيا ابراهيم.

ونحوماكان راى رسول اللّه(ص) من اسباب النبوة قبل الوحي، حتى اتاه جبريل(ع) منعند اللّه

بالرسالة»(٣٠).

وقد روي عن عائشة قولها: (اول ما بدئ به رسول اللّه(ص) من الوحي الرؤيا الصالحةفي النوم...)(٣١).

٤ النفث في الروع والالقاء في النفس: ومن صور الوحي والالقاء الالهي في نفوسالانبياء هو النفث في الروع. فقد روي عن النبي(ص) بيانه لهذه الصورة من صورالوحي، روى الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) قول الرسول(ص): «ايها الناس انيلم اعدع شيئا يقربكم الى الجنة، ويباعدكم من النار، الا وقد نباتكم به، اءلا وان روحالقدس (قد) نفث في روعي، واخبرني ان لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقواالله عزوجل، واجملوا في الطلب»(٣٢).

وهكذا يوضح هذا الحديث طريقة النفث في الروع والالقاء في نفس النبي(ص)المقدسة.

وفيما يلي نقرا تلخيصا لصور الوحي في قوله تعالى: (ما كان لبشر) اي لايصح له(ان يكلمه اللّه الا وحيا) اي الهاما وقذفا في القلوب، او القاء في المنام، (او من وراءحجاب) اي يكلمه من وراء حجاب، كما كلم موسى بخلق الصوت في الطور، وكماكلم نبينا في المعراج، وهذا اما على سبيل الاستعارة والتشبيه، فان من يسمع الكلام،ولا يرى المتكلم، يشبه حاله بحال من يكلم من وراء حجاب، او المراد بالحجابالحجاب المعنوي من كماله تعالى ونقص الممكنات، ونوريته تعالى وظلمانية غيره، كما سبق تحقيقه في كتاب التوحيد. (او يرسل رسولا) اي ملكا (فيوحي باذنهمايشاء).

فظهر ان وحيه تعالى منحصر في اقسام ثلاثة:

اما بالالهام(٣٣) والالقاء في المنام، او بخلق الصوت بحيث يسمعه الموحى اليه.

او بارسال ملك(٣٤).

بدء الوحي:

يشكل الوحي ابرز ظاهرة ربانية غيبية في عالم الانسان والشهادة. ولقد تحدث القرآنعن الوحي،

واضاء ما لابد للانسان معرفته من هذه الظاهرة الغيبية.

وفي هذا الموضوع نحاول ان ندرس مسالة بدء الوحي الى النبي محمد(ص) فانتحديد بداية الوحي الى النبي(ص) توضح لنا مسائل عديدة، من ابرزها انهاءالتقولات التي وصف بها موقف النبي حين مخاطبة جبريل(ع) له في غار حراء.

فقد جاءت روايات مختلفة تصور لنا موقف النبي(ص) من تلقي البشارة بالبعثة الىالبشرية يوم اراد اللّه سبحانه بعثه الى الناس كافة، تروي ان النبي(ص) لم يكن يعرفما حدث له، فعاد الى اهله يملا قلبه الرعب والشك بنفسه، وهو يبحث عن تفسير لماراى وسمع، فكان فهم ذلك وتفسيره عند خديجة وورقة بن نوفل.

ولكي نقف على جانب من تلك الروايات فلنقرا:

اخرج البخاري عن عائشة: (اول ما بدئ به رسول اللّه(ص) من الوحي، الرؤياالصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا وجاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء،وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الىاهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو فيغار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرا، قال: (ما انا بقارئ). قال: (فاخذني فغطني(٣٥)حتى بلغ مني الجهد، ثم ارسلني فقال: اقرا، قلت: ما انا بقارئ، فاءخذني فغطني الثانيةحتى بلغ مني الجهد، ثم ارسلني فقال: اقرا، فقلت: ما انا بقارئ، فاخذني فغطني الثالثة،ثم ارسلني فقال: (اقرا باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرا وربكالاكرم). فرجع بها رسول اللّه(ص) يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد،رضي اللّه عنها، فقال: (زملوني زملوني). فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة،واخبرها الخبر: (لقد خشيت على نفسي). فقالت خديجة: كلا ، واللّه ما يخزيك اللّهابدا، انك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعينعلى نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى، ابن عمخديجة، وكان امرءا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب منالانجيل بالعبرانية ما شاء اللّه ان يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة:يابن عم، اسمع من ابن اخيك. فقال له ورقة: يابن اخي ماذاترى؟ فاخبره رسولاللّه(ص) خبر ما راى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله اللّه علىموسى...)(٣٦).

ويتحدث الطبري في تاريخه المعروف بتاريخ الطبري عن بدء الوحي في غار حراءفيصور ذلك المشهد بالرواية التي رواها البخاري مضيفا: (...حتى فجاه الحق فاتاه،فقال: يامحمد انت رسول اللّه، قال رسول اللّه(ص) فجثوت لركبتي وانا قائم، ثمزحفت ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة، فقلت: زملوني، زملوني حتى ذهبعني الروع، ثم اتاني فقال: يا محمد انت رسول اللّه، قال: فلقد هممت ان اطرح نفسيمن حالق من جبل فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد انا جبريل، وانترسول اللّه...)(٣٧).

ويروي لنا الطبري حوادث بدء الوحي في رواية اخرى، فيقول بعد ان تحدث عنحوار جبريل مع النبي: (...فجاء الى خديجة فقال: يا خديجة ما اراني الا قد عرض لي،قالت: كلا ، واللّه ماكان ربك يفعل ذلك بك، ما اتيت فاحشة قط، قال: فاتت خديجة ورقة ابنوفل فاخبرته الخبر، فقال: لئن كنت صادقة، ان زوجك لنبي...)(٣٨).

ثم يروي الطبري عن النبي(ص) انه قال: ان جبريل جاءه، وهو نائم في غار حراء ليلا،فقال له: اقرا، والنبي يقول: ماذا اقرا؟ ثم يكرر عليه، وهو يقول: ماذا اقرا؟ فقال له فيالمرة الثالثة: (اقرا باسم ربك الذي خلق) الى قوله (علم الانسان مالم يعلم).

ثم ينقل عن النبي(ص) قوله: «فقراته، ثم انتهى، ثم انصرف عني، وهببت من نومي،وكانما كتب في قلبي كتابا».

قال اي النبي(ص): «ولم يكن من خلق اللّه احد ابغض الي من شاعر او مجنون كنتلا اطيق ان

انظر اليهما، قال: قلت ان الابعد يعني نفسه لشاعر او مجنون، لا تحدث بهاعني قريش ابدا، لاعمدن الى حالق من الجبل فلاطرحن نفسي منه، فلاقتلنهافلاستريحن.

قال(ص): فخرجت اريد ذلك، حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا منالسماء يقول: يا محمد انت رسول اللّه، وانا جبرئيل...)(٣٩).

ثم يواصل الطبري نقله لهذه الرواية التي تنسب الى النبي(ص): (...وانصرفت راجعاالى اهلي حتى اتيت خديجة فجلست الى فخذها مضيفا، فقالت: يا ابا القاسم اينكنت؟ فواللّه لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكة، ورجعوا الي، قال: قلت لها:ان الابعد لشاعر او مجنون، فقالت: اعيذك باللّه من ذلك يا ابا القاسم: ما كان اللّه ليصنعذلك بك مع ما اعلم منك من صدق حديثك، وعظم امانتك، وحسن خلقك، وصلةرحمك، وذاك يا ابن عم ! لعلك رايت شيئا؟ قال: فقلت لها: نعم. ثم حدثتها بالذيرايت، فقالت: ابشر يابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده اني لارجو ان تكوننبي هذه الامة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل بن اسدوهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرا الكتب، وسمع من اهل التوراة والانجيلفاخبرته بما اخبرها به رسول اللّه(ص) انه راى وسمع، فقال ورقة: قدوس، قدوس!والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الاكبر يعنيبالناموس جبرئيل(ع) الذي كان ياتي موسى وانه لنبي هذه الامة، فقولي له فليثبت.فرجعت خديجة الى رسول اللّه(ص)، فاخبرته بقول ورقة فسهل ذلك عليه بعض ماهو فيه

من الهم...)(٤٠).

وهكذا تصور هذه الروايات شخصية النبي الاكرم محمد(ص) وموقفه من تلقيالوحي بشكل يتناقض وما ورد عن ائمة اهل البيت وعلمائهم، وتبرز ثلاثة عناصراساسية حرية بان نناقشها، ونكشف ماحوت من طعن في شخص النبي الكريم(ص)وتوهين لموقفه، ومخالفة للعقل والمنطق.

فهي تصور:

١- ان النبي كان يجهل ما سمع وراى، ولا يعرف له تفسيرا.

٢- اتهم النبي(ص) نفسه بانه شاعر او مجنون. مما يكشف التلفيق الواضح، والدسالصريح الماخوذ من تهم الاعداء لشخص النبي(ص) بعد التعريف بنبوته.

٣- لقد فقد النبي السيطرة على موقفه العصبي، وحاول ان يلقي بنفسه من اعلى الجبلليقتلها.

٤- ان خديجة وورقة بن نوفل قد اكتشفا ان الذي رآه النبي(ص) هو جبريل، وان ماحدث له ان هو الا تباشير النبوة.

فطماناه بذلك فعرف انه نبي مخاطب بالوحي منهما،وبذا اطمانت نفسه، وعرف تفسير ما راى. اما هو فلم يستطع معرفة ما راى وسمع.

٥- ان ما رآه النبي(ص) هو رؤية منام، وليس يقظة كما اورد الطبري ذلك في احدىرواياته.

٦- تتناقض هذه الروايات مع صدر الرواية التي رواها البخاري عن عائشة من انالوحي الى النبي(ص) قد بدئ بالرؤية الصالحة، فكان لايرى رؤية الا جاءت كفلقالصبح.

واذا كانت هذه المجموعة من الروايات تتحدث بهذا الشكل المشوه والمفترى في بدءالوحي، وتلقي الرسول(ص) لهذا الفتح الغيبي الفريد في عالم الانسان، والتي تبناهاالمستشرقون والمشوهون لمبدا النبوة، فلنتناول مجموعة اخرى من الروايات والاراءالتي تتحدث عن بدء الوحي، وعن موقف الرسول(ص) وعلاقته باللّه سبحانه قبل انيتفضل المولى عليه ببشارة البعثة في غار حراء، لنسجل التناقض بين المجموعتين،ونعرض الفهم السليم لشخص الرسول، ولنزول الوحي، وكيفية تلقيه(ص) لهذاالحدث العظيم.

فقد جاء عن ائمة اهل البيت(ع)، وعن عدد من علماء ينتسبون الى مدارس مذهبيةمتباينة؟. ان النبي لم يفاجا بالوحي، وان هناك مرحلة اعداد الهي، وتربية للنبي(ص)ليكون مؤهلا لتلقي الوحي، واستقبال المهمة الكبرى في عالم الانسان.

قال الاحول: سالت ابا جعفر عن الرسول والنبي والمحدث: قال: (الرسول الذي ياتيهجبريل قبلا فيراه ويكلمه، فهذا الرسول.

واما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيةابراهيم(ع) ونحو ما كان راي رسول اللّه(ص) من اسباب النبوة قبل الوحي، حتى اتامجبريل(ع) من عند اللّه بالرسالة، وكان محمد(ص) حين جمع له النبوة، وجاءتهالرسالة من عند اللّه يجيئه بها جبريل(ع)، ويكلمه قبلا...)(٤١).

وعن زرارة قال: قلت لابي عبد اللّه: كيف لم يخف رسول اللّه(ص) فيما ياتيه من قبلاللّه ان يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟ قال: فقال: «ان اللّه اذا اتخذ عبدا رسولا انزلعليه السكينة والوقار فكان ياتيه من قبل اللّه، عزوجل، مثل الذي يراه بعينه»(٤٢).

وتحدث الامام علي(ع) في الاعداد الالهي لشخص النبي الكريم وتاهيله للنبوة فقال:«لقد قرن اللّه به من لدن كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم،ومحاسن اخلاق العالم، ليله ونهاره»(٤٣).

ونقل الماوردي عن الشعبي ما يساوق قول الامام علي(ع) فقد جاء فيه: (ان اللّه قرناسرافيل(ع) بنبيه ثلاث سنين، يسمع حسه، ولا يرى شخصه، يعلمه الشيء بعدالشيء، ولا يذكر له القرآن، فكان في هذه المدة مبشرا بالنبوة، وامهله هذه المدة،ليتاهب لوحيه)(٤٤).

واخرج البخاري عن عائشة رض انها قالت: (اول ما بدئ به رسول اللّه من الوحيالرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح...).

وقال القاضي وغيره: (وانما ابتدئ رسول اللّه(ص) بالرؤيا لئلا يفجاه الملك الذي هوجبرئيل(ع) بالنبوة: اي الرسالة، فلا تتحملها القوى البشرية: اي لان القوى البشرية لاتتحمل رؤية الملك، وان لم يكن على صورته التي خلقه اللّه عليها، ولا على سماعصوته، ولاعلى ما يخبر به، لا سيما الرسالة، فكانت الرؤيا تانيسا له(ص) والمرادبالملك جبرئيل(ع)(٤٥).

ثم نقل الحلبي في سياق عرضه للاراء الواردة في بدئ الوحي فقال: وعن علقمة بنقيس: (اول

ما يؤتى به الانبياء في النوم، اي ما يكون في المنام، حتى تهدا قلوبهم، ثمينزل الوحي)(٤٦).

ثم علق الحلبي على ذلك بقوله: اي في اليقظة(٤٧)، لان رؤيا الانبياء وحي وصدقوحق، لا اضغاث احلام، ولا تخيل من الشيطان، اذ لا سبيل له عليهم، لان قلوبهمنورانية فما يرونه في المنام، له حكم اليقظة، فجميع ما ينطبع في عالم مثالهم لا يكونالا حقا، ومن ثم جاء: «نحن معاشر الانبياء تنام اعيننا ولا تنام قلوبنا»(٤٨).

ثم قال: (وذكر بعضهم ان مدة الرؤيا ستة اشهر، قال: فيكون ابتداء الرؤيا حصل فيشهر ربيع الاول، وهو مولده(ص) ثم اوحى اللّه اليه في اليقظة، اي في رمضان، ذكرهالبيهقي وغيره)(٤٩).

وتحدث العلا مة المجلسي بعد ان عرض جملة من الاخبار والروايات والتحليلاتالمتعلقة ببدء الوحي، قال: (فاذا عرفت ذلك فاعلم ان الذي ظهر لي من الاخبارالمعتبرة، والاثار المستفيضة، هو انه كان قبل بعثته، مذ اكمل اللّه عقله في بدو سنه، نبياموٴيدا بروح القدس، يكلمه الملك، ويسمع الصوت، ويرى في المنام، ثم بعد اربعينسنة صار رسولا، وكلمه الملك معاينة، ونزل عليه القرآن، وامر بالتبليغ، وكان يعبد اللّهقبل ذلك بصنوف العبادات، اما موافقا لما امر به الناس بعد التبليغ، وهو اظهر، او علىوجه آخر، اما مطابقا لشريعة ابراهيم(ع) او غيره ممن تقدمه من الانبياء(ع) لا علىوجه كونه تابعا لهم، او عاملا بشريعتهم، بل ان ما اوحي اليه كان مطابقا لبعضشرائعهم، او على وجه آخر، نسخ بما نزل عليه بعد الارسال...)(٥٠).

ان هذه المجموعة من الروايات والاراء والتحليلات العلمية التي وردت عن ائمة اهلالبيت وعلمائهم، وعدد من علماء المذاهب الاسلامية الاخرى. لتؤكد لنا حقيقةمنطقية، وتكشف واقعا موضوعيا يتلخص في المبادئ الاتية: ١- ان اللّه اعد نبيه، وهياه لتحمل تلك المسؤولية الكبرى، ورعاه رعاية ربانية عن طريقملك (روح القدس) مكلف بذلك قبل ان يكلف بحمل الرسالة الى البشرية في غارحراء.

٢- ان بدء الوحي، هو الرؤية الصادقة في المنام التي كان يدرك حقيقتها، كما يدرك فيعالم اليقظة.

٣- انه نبئ فكان نبيا، مذ اكمل اللّه عقله في بدو سنه، يتلقى الوحي عن طريق المنامواالالقاء في النفس وحديث الملك قبل ان يبعث الى الناس رسولا.

٤- ان فترة الخلوة التي كان يخلوها في غار حراء كان فيها نبيا، فكان يخلو للتعبدوالتامل، منتظرا البعثة والرسالة. ولم يفاجا بشيء ابدا.

٥ بعد ان كمل عمره الشريف اربعين سنة، نزل عليه جبريل(ع) بالقرآن، وبعثه اللّه الىالناس رسولا.

١- المفردات في غريب القرآن : الراغب الاصفهاني ، ص٨٥٨ ٨٥٩ .

٢- تصحيح الاعتقاد المطبوع مع اوائل المقالات : ص٢٣١ .

٣- الطبرسي ، مجمع البيان . سورة آل عمران ، الاية ٤٤ .

٤- سورة الانعام ، الاية ١٩ .

٥- تصحيح الاعتقاد المطبوع مع اوائل المقالات : ص٢٣١ .

٦- اوائل المقالات ، الشيخ المفيد : ص٧٨ .

٧- تصحيح الاعتقاد : ص٢٣١ .

٨- سورة النساء ، الاية ١٦٣ .

٩- المجلسي ، بحار الانوار : ١٨ / ٢٥٤ نقلا عن تفسير النعماني .

١٠- سورة القصص ، الاية ٧ .

١١- تصحيح الاعتقاد : ص٢٣١ .

١٢- سورة المائدة ، الاية ١١١ .

١٣- المجلسي ، بحار الانوار : ١٨ / ٢٥٤ ٢٥٥ .

١٤- تصحيح الاعتقاد ، ص٢٣١ .

١٥- سورة الانعام ، الاية ١٢١ .

١٦- سورة مريم ، الاية ١١ .

١٧- سورة فصلت ، الاية ١٢ . يراجع تفسيرها .

١٨- سورة النحل ، الاية ٦٨ .

١٩- سورة الشورى ، الاية ٥١ ٥٢ .

٢٠- السبتة : الغشية .

٢١- المجلسي ، بحار الانوار : ٢٧١/١٨ .

٢٢- المصدر السابق : ٢٥٦/١٨ . مؤسسة الوفاء بيروت .

٢٣- تصحيح الاعتقاد : ص٢١٠ .

٢٤- الطبرسي ، مجمع البيان : تفسير الاية ١٤٥ من سورة الاعراف .

٢٥- سورة الشعراء ، الاية ١٩٣ ١٩٤ .

٢٦- سورة البقرة ، الاية ٩٧ .

٢٧- سورة الفتح ، الاية ٢٧ .

٢٨- سورة الاسراء ، الاية ٦٠ .

٢٩- علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية ، باب بدء الوحي : ٤٠٠/١ ،ط / دمشق : دار المعرفة (١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م) .

٣٠- الكليني ، الاصول من الكافي : ١٧٦/١ . باب الفرق بين الرسول والنبي .

٣١- صحيح البخاري : ج١ ص٣٠ ٣١ دار احياء التراث العربي بيروت ، (ط . ٢ / ١٤٠١هـ ١٩٨١ م) باب كيف كان بدء الوحي الى رسول اللّه ٦ .

٣٢- الكليني ، الكافي : ٨٣/٥ . كتاب المعيشة ، باب الاجمال في الطلب .

٣٣- يدخل النفث في الروع في هذا القسم من الوحي .

٣٤- المجلسي ، بحار الانوار : ١٨ / ٢٤٦ .

٣٥- غطني : كبسني وعصرني عصرا شديدا / المعجم الوسيط .

٣٦- صحيح البخاري : ١ / ٣٧ ٣٨ ، دار احياء التراث العربي بيروت ط ٢ ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

٣٧- تاريخ الطبري : ٢٠٥/٢ ، ط ١٣٩٩ ١٩٧٩ م دار الفكر بيروت .

٣٨- المصدر السابق : ٢٠٦/٢ .

٣٩- المصدر السابق : ص٢٠٧ .

٤٠- تاريخ الطبري : ٢ / ٢٠٧ .

٤١- المجلسي ، بحار الانوار : ٢٦٦/١٨ .

٤٢- المجلسي ، بحار الانوار : ٢٦٢/١٨ .

٤٣- المجلسي ، بحار الانوار : ٢٧١/١٨ .

٤٤- علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية : ٤٠٠/١ ط ١ / دمشق : دار المعرفة(١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م) .

٤٥- المصدر السابق : ج١ ص٣٩٧ .

٤٦- المصدر نفسه .

٤٧- يعني نزول الوحي .

٤٨- المصدر السابق .

٤٩- المصدر السابق .

٥٠- بحار الانوار : ٢٧٧/١٨ ط ٣ (١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م) .

كيفية نزول القرآن

لقد تحدث القرآن عن زمن النزول وكيفيته، فاوضح ان القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، جاء ذلك في قوله تعالى: (شهر رمضان الذي اءنزل فيه القرآنهدى للناس وبينات من الهدى والفرقان...).

ثم بين الليلة التي نزل فيها القرآن، فقال: (انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين #فيها يفرق كل امر حكيم)(٥١).

وبين هذه الليلة المباركة بقوله: (انا انزلناه في ليلة القدر).

وهكذا يوضح القرآن انه نزل ليلا في ليلة القدر على النبي الامين محمد(ص) فيشهر رمضان المبارك. وفي موضع آخر تحدث عن كيفية نزول القرآن وتنزيله من قبلاللّه تعالى على النبي محمد(ص)، قال سبحانه: (ما كان لبشر ان يكلمه اللّه الا وحيا اومن وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم)(٥٢).

وقال تعالى: (فاذا قراناه فاتبع قرآنه)(٥٣)، وقال تعالى: (وقرآنا فرقناه لتقراهعلى الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)(٥٤).

وقال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت بهفؤادك ورتلناه ترتيلا)(٥٥).

وحصيلة ما يستفاد من هذه الايات المباركة:

١- ان القرآن نزل وحيا من رب العزة، وبصورة قراءة، نزل به جبريل على النبي محمد(ص) وليس مكتوبا بصحف او الواح، كما نزلت الكتب الالهية الاخرى.

٢- ان النزول بدا في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، كما نزلت الكتب الالهيةالتوراة

والانجيل والزبور في هذا الشهر المبارك، كما تفيد الروايات ذلك.

٣- ان القرآن نزل مفرقا على شكل آيات او سور احيانا، ولم ينزل بصورته الكاملة علىالنبي محمد(ص) دفعة واحدة، ويتضح ذلك من قوله تعالى: (لتقراه على الناسعلى مكث) و (ورتلناه ترتيلا) اي بيناه وفرقناه تفريقا، كما يتضح ذلك من رده علىالكافرين بالاية٣٢ من سورة الفرقان، الذين طالبوا بانزاله جملة واحدة على النبيمحمد(ص).

وما جاء في الفقرة الثالثة آنفا، هو ما يذهب اليه جمع من العلماء والمحققين، وبه قالالشيخ المفيد.

غير ان هناك من يذهب الى ان القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السماءالدنيا، ثم انزله اللّه تعالى عن طريق جبرئيل على نبيه محمد(ص) مفرقا.

وقد اخرج الحاكم والبيهقي والنسائي وابن ابي شيبة وابن ابي حاتم والطبراني والبزاروابن مردويه عن ابن عباس بعدة طرق، اخرجوا ذلك(٥٦).

ومن علماء الشيعة يذهب الى هذا القول الشيخ الصدوق ايضا وهو من اعاظم علماءالشيعة الامامية، وقد رد الشيخ المفيد هذا الراي، وناقش الصدوق، ولكي يتضحالرايان فلنذكرهما معا: قال الشيخ الصدوق: (ان القرآن نزل في شهر رمضان، في ليلة القدر جملة واحدة الىالبيت المعمور، ثم انزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة)(٥٧).

وقد رد الشيخ المفيد على هذا الراي بقوله: (الذي ذهب اليه ابو جعفر في هذا الباباصله حديث واحد، لا يوجب علما ولا عملا ونزول القرآن على الاسباب الحادثة،حالا فحالا يدل على خلاف ماتضمنه الحديث. وذلك انه قد تضمن حكم ما حدث،وذكر ماجرى، وذلك لا يكون على الحقيقة الا لحدوثه عند السبب. ثم استشهد بياتكثيرة مثل: (قد سمع اللّه قول التي تجادلك في زوجها) وكثير من امثال ذلك، بالاضافةالى استعمال القرآن صيغة الماضي في وقوع الحوادث التي وقعت في عهد النزول علىالنبي(ص) بعد حدوثها، فكيف يستعمل صيغة الماضي قبل وقوع الحوادث

التيوقعت في المدينة في حال التسليم بنزوله كاملا في مكة ليلة القدر؟.

ثم قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر، انه نزل جملة منهفي ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه الى وفاة النبي(ص). فاما ان يكون نزل باسره وجميعهفي ليلة القدر، فهو بعيد مما يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الاخبار، واجماعالعلماء على اختلافهم في الاراء(٥٨).

اول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه:

ان اول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى: (بسم اللّه الرحمن الرحيم# اقرا باسم ربكالذي خلق # خلق الانسان من علق # اقرا وربك الاكرم# الذي علم بالقلم # علم الانسان مالم يعلم) فهذه الايات الخمس بعد البسملة، هي اول ما نزل من القرآن علىالنبي(ص) في غار حراء. اما الايات الاخرى من سورة العلق فقد نزلت بعد فترة منالزمن ثم وضعت في موضعها الذي هي فيه من السورة، غير ان هناك آراء وروايتتحدث عن ان اول ما نزل من القرآن هو سورة المدثر، واخرى تذهب الى ان اول مانزل من القرآن هو سورة الفاتحة. واختار الطوسي والطباطبائي في تفسيريهما: ان اولما نزل من القرآن، هو الايات الخمس من سورة العلق.

وكما اختلف في اول ما نزل من القرآن، اختلف كذلك في آخر مانزل منه، فقيل هيسورة براءة، وقيل سورة: اذا جاء نصر اللّه والفتح، وقيل سورة المائدة، وقيل غيرذلك.

ويرجح علماء الشيعة الامامية ان آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى: (اليوم اكملتلكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا).

لماذا نزل القرآن مفرقا:

اثار المشركون شبهة ملخصها: ان نزول القرآن مفرقا يعني ان النبي(ص) ليس مرسلابدين من اللّه سبحانه، اذ لو كان وحيا الهيا على زعمهم لنزل دينا كاملا مرة واحدة،ونزوله مفرقا يعني انه قول البشر يتامل نصوصه فياتي بها.

فرد عليهم القرآن، وبين الحكمة من النزول مفرقا، فقال تعالى: (وقال الذين كفروا لولاانزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)(٥٩).

ويمكن ان يكون سبب هذه الشبهة ما هو معروف من اخبار الديانات السابقة ، انالكتب انزلت مكتوبة جملة واحدة، وكيفية نزول القرآن تختلف عن كيفية نزولالتوراة والانجيل والزبور، فالقرآن نزل قراءة ومفرقا، اما تلك الكتب فقد نزلت مكتوبةجملة واحدة وبصيغتها الكاملة. وقد ذكر القرآن ذلك، كما في قوله تعالى: (وكتبنا لهفي الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وامر قومك ياخذواباحسنها ساوريكم دار الفاسقين)(٦٠).

وقال تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمةللذين هم لربهم يرهبون)(٦١).

وهكذا يوضح القرآن ان التوارة انزلت مكتوبة بشكلها الكامل في الالواح، وبهذهالصيغة تلقاها موسى(ع). وقد بين القرآن الحكمة من نزوله مفرقا في الاية (٣٢) منسورة الفرقان، كما وبين ذلك في الاية (١٤٥) من سورة الاعراف.

وملخص الحكمة في الايتين هو:

١- لنثبت به فؤادك.

٢- لتقراه على الناس على مكث.

فالحكمة اذن هي ان استمرار نزول الوحي، وتواصل نزولالقرآن ومواصلة النبي بالقرآن، يثبت فؤاد النبي(ص) ويقويموقفه الجهادي في مواجهة التحديات اولا، وثانيا ان الرسالة الاسلامية رسالة تغييرشامل، وتسعى لبناء مجتمع ودولة وحضارة، وتثبيت قانون ونظام. والتغيير والبناءيقتضي التدرج في التبليغلمواصلة عملية الهدم والبناء، ولترسخ الدعوة في النفوس، وتستوعب العقيدةوالاحكام والمفاهيم بشكل تدريجي، وليستقبل الناس التغيير على مراحل،وليتفاعلوا مع مبادئ القرآن، وتتهيا النفوس لتحمل التكاليف.

وهكذا يكون العامل الزمني والنزول التدريجي قضية ضرورية للنبي(ص)وللمجتمع كما يوضح القرآن ذلك.

ولعل البحث يدعونا الى ان نذكر ان الرسول(ص) كان نبيا قبل ان يبعث رسولا، اي‌قبل ان ينزل عليه القرآن في غار حراء، وهذا يعني ان النبي(ص) كان يتلقى تعاليم‌قرآنية بمعانيها ودلالاتها ليعد ويهيا لمهمة تلقي القرآن، وحمل الرسالة الكبرى.

وقد ذهبت بعض الاراء الى ان النبي(ص) تلقى وحيا الاركان الاساسية والخطوط‌الكبرى لامهات الكتاب جملة واحدة، ثم نزل القرآن باكمله مفرقا عبر سني التنزيل.

حفظ القرآن من التحريف

لم يحظ كتاب على وجه البسيطة بالعناية والاهتمام كما حظي القرآن الكريم، فمنذ بدا الوحي وتلقى النبي(ص) هذا الخطاب الالهي المقدس، كان اهتمامه(ص) به‌عظيما، وشغفه به فريدا، وحبه له منقطع النظير.

وقد خلد الوحي الالهي هذا الاهتمام النبوي بنص قوله:

(لاتحرك به لسانك لتعجل به# ان علينا جمعه وقرآنه # فاذا قراناه فاتبع قرآنه)(٦٢).

سجل المؤرخون وكتاب السير، والمهتمون بعلوم القرآن وتاريخه، ان النبي(ص)كان يدون كل ماينزل عليه من وحي، وان عددا من الصحابة كان يحفظ القرآن. كمادلت الروايات التاريخية ان عددا من الصحابة كانت لهم مصاحف يختلف ترتيب‌السور فيها من صحابي الى صحابي آخر، وعدوا مصحف الامام علي(ع)، ومصحف‌عبد اللّه بن مسعود، ومصحف ابي بن كعب(رضى‌اللّه)...الخ.

ولقد تلقى المسلمون القرآن الكريم جيلا بعد جيل بالحفظ والقراءة والتفسير والمدارسة، وبشكل

متواتر، لا يعطي مجالا لاحد ان يخفي، او يسقط شيئا منه، كماليس بوسع احد ان يضيف اليه لنشوز المضاف، وتميزه عن كلام اللّه تعالى.

ولوجودالحفاظ والمصاحف المكتوبة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة هو قول اللّه سبحانه: (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)،وقوله: (لا تحرك به لسانك لتعجل به# ان علينا جمعه وقرآنه).

وبهاتين الايتين تعهد اللّه سبحانه بحفظ القرآن من التحريف والضياع، فقد تعهدبجمعه كاملا، وبحفظه من التحريف والضياع والاندراس.

وناقش العلماء المختصون ما رواه البعض من روايات ضعيفة وموضوعة عن بعضالرواة المتهمين، من المنتمين الى المذاهب السنية والشيعية، واسقطوها من الاعتبار،واجمعوا على سلامة القرآن وصيانته من التحريف وللّه الحمد.

وقد عبر اساطين العلماء من الشيعة الامامية عن سلامة القرآن وصيانته منالتحريف.

ومن المفيد ان نورد بعضا منها.

قال الشيخ الطوسي مدافعا عن صيانة القرآن من التحريف ورده على ما يرددهالبعض: (واما الكلام في زيادته ونقصانه، فمما لا يليق به ايضا، لان الزيادة فيه مجمع علىبطلانها، والنقصان منه فالظاهر ايضا من مذهب المسلمين خلافه، وهو الاليقبالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى(رضىاللّه) وهو الظاهر فيالروايات. غير انه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آيالقرآن، ونقل شيء منه من موضع الى موضع، طريقها الاحاد التي لا توجب علما ولاعملا)(٦٣).

ويوضح العلماء المختصون ان ما ورد من روايات عن ائمة اهل البيت(ع) تتحدثعن التحريف انما هي تعني تحريف معنى القرآن بتفسيره او قراءته على غير ما انزل،مما يغير معناه ودلالته، وحذف ماورد عن علي(ع) من تفسيره وتاويله الذي تلقاه عنرسول اللّه(ص) واثبته على

المصحف الذي كتبه بيده.

وليس التحريف هو الحذف من حروفه وكلماته وآياته وسوره او الاضافة اليه، وقدوضح الشيخ المفيد(رحمه‌اللّه) ذلك بقوله: (وقد قال جماعة من اهل الامامة انه لم‌ينقص من كلمة، ولا من آية، ولا من سورة، ولكن حذف ما كان مثبتا في مصحف اميرالمؤمنين(ع) من تاويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله)(٦٤).

٥١- سورة الدخان ، الاية ٣ و ٤ .

٥٢- سورة الشورى ، الاية ٥١ .

٥٣- سورة القيامة ، الاية ١٨ .

٥٤- سورة الاسراء ، الاية ١٠٦ .

٥٥- سورة الفرقان ، الاية ٣٢ .

٥٦- السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ١/١١٦ ١١٧ .

٥٧- تصحيح اعتقاد الصدوق : ص٢٣٢ .

٥٨- تصحيح اعتقاد الصدوق : ص٢٣٣ .

٥٩- سورة الفرقان ، الاية ٣٢ .

٦٠- سورة الاعراف ، الاية ١٤٥ .

٦١- سورة الاعراف ، الاية ١٥٤ .

٦٢- سورة القيامة ، الاية ١٦ ١٨ .

٦٣- تفسير التبيان ، المقدمة : ١/٣ .

٦٤- اوائل المقالات : ص٩٤ .

جمع القرآن

قال اللّه تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به × ان علينا جمعه وقرآنه × فاذا قرآناه فاتبع قرآنه)(٦٥).

وقال تعالى: (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون).

وقال تعالى: (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء اللّه).

من القضايا المسلم بها لدى جميع المسلمين ان القرآن نزل على النبي(ص) مفرقاعلى امتداد ثلاثة وعشرين عاما، وهي مدة نزول الوحي والرسالة، وان الرسول(ص)كان اذا نزل عليه الشيء من القرآن قام بتبليغه، وبيان ما فيه من العمل والتطبيق الى منحوله، فيتلقاه منه اصحابه بالقراءة والحفظ.

روى عبادة بن الصامت قال: (كان رسول اللّه(ص) يشغل، فاذا قدم رجل مهاجر علىرسول اللّه(ص) دفعه الى رجل منا يعلمه القرآن)(٦٦).

وروى كليب قال: (كنت مع علي(ع) فسمع ضجتهم في المسجد يقراون القرآن،فقال: طوبى لهؤلاء...)(٦٧).

وعن عبادة بن الصامت قال: (كان الرجل اذا هاجر دفعه النبي(ص) الى رجل منا يعلمهالقرآن، وكان يسمع بمسجد رسول اللّه(ص) ضجة بتلاوة القرآن، حتى امرهم رسولاللّه ان يخفضوا اصواتهم، لئلا يتغالطوا)(٦٨).

وقد رغب رسول اللّه(ص) المسلمين، وحثهم على حفظ القرآن وتدارسه وتعليمه،فنشطت حركة القراءة والحفظ والتعليم، واشتدت العناية بكتاب اللّه العزيز، فكان فيجيل الصحابة من يحفظ القرآن حفظا كاملا على عهد النبي(ص) وهم الامام علي بنابي طالب(ع) وابيبن كعب، وابو الدرداء، وسعد بن عبيد بن النعمان، وثابت بن زيدبن النعمان، ومعاذ بن جبل، وعبيد بن معاوية بن زيد بن ثابت(٦٩)، وكان هناك منيحفظ بعضه والكثير منه.

ويستفاد من الاخبار اهتمام جيل الصحابة البالغ بحفظ القرآن وتلاوته.

كما روي ان بعض الصحابة كان يعرض حفظه على النبي(ص) ليتاكد من حفظه.

ومن الثابت لدى المسلمين جميعا ان رسول اللّه(ص) كان له كتاب يكتبون ماينزل منالوحي فيدون على العسب واللخاف وجريد النخل.

قال اليعقوبي: (وكان كتابه الذين يكتبون الوحي والكتب والعهود: علي بن ابي طالب،وعثمان بن عفان، وعمرو بن العاص بن امية، ومعاوية بن ابي سفيان، وشرحبيل بنحسنة، وعبد اللّه بن سعد بن ابي سرح، والمغيرة بن شعبة، ومعاذ بن جبل، وزيد بنثابت، وحنظلة بن الربيع، وابي بن كعب، وجهيم بن الصلت، والحصين بنالنميري)(٧٠).

وقال زيد بن ثابت: (كنا عند النبي(ص) نؤلف القرآن من الرقاع)(٧١).

ويتحصل من ذلك: ان اللّه سبحانه تعهد بحفظ القرآن من الضياع والتحريف، كمانصت الايات الانفة الذكر. وان الحقائق التاريخية تدحض شبهات التحريف التافهة.

فقد كان العشرات من جيل الصحابة يحفظون القرآن عن ظهر قلب، وان القرآن كانمجموعا ومدونا على عهد رسول اللّه(ص) على قطع من الجلد او الجريد او اللخافاو العسب... الخ.

روايات جمع القرآن:

واذا تاكد لنا ان رسول اللّه(ص) كان قد دون القرآن على جريد النخل واللخافـوالعسب... الخ.

وان القرآن كان مجموعا في صدور الحفاظ فما معنى جمع القرآن الذي تحدثت بهالروايات التاريخية بعد النبي(ص) وبشكل متعارض، فكان بعضها يقول ان ابا بكر قدجمع القرآن، وبعضها يقول ان عمر بن الخطاب كان قد جمع القرآن، وبعضها يقول انعثمان هو الذي جمع القرآن، واخرى تقول ان الذي جمعه هو الامام علي(ع).

فيما يلي نستعرض بعضا من تلك الروايات:

روى زيد بن ثابت، قال: (ارسل الي ابو بكر مقتل اهل اليمامة فاذا عمر بن الخطابعنده. قال ابو

بكر: ان عمر اتاني، فقال: ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن،واني اخشى ان يستحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن، واني ارى انتامر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول اللّه(ص)؟ قال عمر:هذا واللّه خير، فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح اللّه صدري لذلك، ورايت في ذلكالذي رآى عمر، قال زيد: قال ابو بكر: انك رجل شاب عاقل لانتهمك، وقد كنتتكتب الوحي لرسول اللّه(ص) فتتبع القرآن باجمعه، فواللّه لو كلفوني نقل جبل منالجبال ما كان اثقل علي مما امرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعلهرسولاللّه(ص)؟ قال: هو واللّه خير، فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح اللّه صدريللذي شرح له صدر ابي بكر وعمر، فتتبعت القرآن اجمعه من العسب، واللخاف،وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع ابي خزيمة الانصاري، لم اجدهامع احد غيره.

(لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوفرحيم × فان تولوا فقل حسبي اللّه لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرشالعظيم)(٧٢).

حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند ابي بكر حتى توفاه اللّه ثم عند عمر حياته، ثمعند حفصة بنت عمر)(٧٣).

وهناك روايات تقول ان عمر بن الخطاب هو الذي جمع القرآن: فقد روى يحيى بنعبد الرحمن بن حاطب، قال: (اراد عمر بن الخطاب ان يجمع القرآن فقام في الناس،فقال: من كان تلقى من رسول اللّه(ص) شيئا من القرآن فلياتنا به، وكانوا كتبوا ذلك فيالصحف، والالواح، والعسب، وكان لا يقبل من احد شيئا حتى يشهد شهيدان، فقتلوهو يجمع ذلك اليه، فقام عثمان، فقال: من كان عنده من كتاب اللّه شيء فلياتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئا حتى يشهد عليه شهيدان، فجاء خزيمة بن ثابت، فقال: انيقد رايتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما، قالوا: ما هما ! قال: تلقيت من رسول اللّه(ص):(لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم...). الى آخر السورة فقال عثمان:وانا اشهد انهما من عند اللّه، فاين ترى ان نجعلهما؟ قال اختم بهما آخر ما نزل

من القرآن فختمت بهما براءة)(٧٤).

وهناك روايات تقول ان عثمان بن عفان هو الذي جمع القرآن: فقد روى ابن شهاب انانس بن مالك حدثه: (ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي اهل الشام فيفتح ارمينية واذربيجان مع اهل العراق. فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقالحذيفة لعثمان: يا امير المؤمنين ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلافاليهود والنصارى، فارسل عثمان الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها فيالمصاحف، ثم نردها اليك، فارسلت بها حفصة الى عثمان فامر زيد بن ثابت، وعبد اللّهبن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام، فنسخوها فيالمصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت فيشيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى اذا نسخواالصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة، وارسل الى كل افق بمصحفمما نسخوا، وامر بما سواه من القرآن في كل صحيفة او مصحف ان يحرق)(٧٥).

قال ابن شهاب: واخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آيةمن الاحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت اسمع رسول اللّه(ص) يقرا بها،فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصاري.

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه)(٧٦)

فالحقناها في سورتها فيالمصحف(٧٧).

وعن محمد بن اسحاق: روى الثقة ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان، وكانبالعراق، وقال لعثمان: ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهودوالنصارى.

فارسل عثمان الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف،ثم نردها اليك، فارسلت بها حفصة الى عثمان، فامر عثمان زيد بن ثابت، وعبد اللّه بنالزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها فيالمصاحف)(٧٨).

وهناك روايات تقول ان الامام علي بن ابي طالب(ع) هو الذي جمع القرآن.

قال اليعقوبي: (روى بعضهم ان علي بن ابي طالب كان جمعه لما قبض رسول اللّه،واتى به يحمله على جمل، فقال: هذا القرآن قد جمعته، وكان قد جزاه سبعةاجزاء...)(٧٩).

ونقل ابن النديم في كتابه الفهرست: (... عن علي(ع) انه راى من الناس طيرة عند وفاةالنبي(ص) فاقسم انه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثةايام حتى جمع القرآن، فهو اول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه، وكان المصحفعند اهل جعفر، ورايت انا في زماننا عند ابي يعلى حمزة الحسني(رحمهاللّه)مصحفا قد سقط منه اوراق بخط علي بن ابي طالب يتوارثه بنو حسن على مر الزمان،وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف...)(٨٠).

ونجد في رواية اسلام عمر وثيقه تاريخه تؤيد عناية رسول اللّه(ص) بتدوين القرآنفي مكة المكرمة، ومن بدء نزوله، والمواظبة على حفظه، وانه كان يتداول بينهممكتوبا على صحف تحوي النازل منه كله او بعضه آنذاك، كما كان يتداول حفظا.

فقد جاء في تلك الرواية: (...فرجع عمر عامدا الى اخته وختنه، وعندهما خباب بنالارت معه صحيفة، فيها (طه) يقرءهما اياها،فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهم، او في بعض البيت، واخذتفاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها...)(٨١).

وجاء ايضا ان عمر هاجم بيت اخته فاطمة وزوجها، وهما يقرئان القرآن، فضربهما،فقالت له اخته: (وان كان الحق في غير دينك اني اشهد ان لا اله الا اللّه وان محمدا عبدهورسوله، فقال عمر: اعطوني الكتاب الذي هو عندكم فاقراه، وكان عمر يقرا الكتاب،فقالت اخته: انك رجس، وانه لا يمسه الا المطهرون فقم واغتسل او توضا، فقامفتوضا، ثم اخذ الكتاب، فقرا (طه) حتى انتهى الى: (انني انا اللّه لا اله الا انا فاعبدنيواقم الصلاة لذكري)...)(٨٢).

ودراسة هذه الوثيقة تؤكد ان الرسول(ص) كان يدون القرآن من بدء الدعوة في مكةالمكرمة. وذلك واضح في عبارتي (معه صحيفة فيها طه). (واعطوني الكتاب الذي هوعندكم فاقراه) فحوادث

هذه الوثيقة، كما يذكر المؤرخون، كانت في المرحلة السرية،وكما تشير الحادثة ذاتها الى ذلك، مما يكشف المشروع النبوي لتدوين القرآنوجمعه مدونا، اضافة الى جمعه في صدور الحفاظ، كما ذكر.

وقد قام المرجع الديني الراحل السيد ابو القاسم الخوئي(رحمهاللّه) بدراسةوتحليل هذه الروايات ونقدها، واستخلاص النتائج بشكل علمي متين منها في كتابهالبيان في تفسير القرآن.

ويمكننا ان نستخلص من مجموع تلك الروايات ما يلي:

١ ان القرآن كان مدونا بكامله على عهد رسول اللّه(ص) وانه كان محفوظا بكامله فيصدور الحفاظ.

٢ ان روايات الجمع: يقصد بها تدوين كامل القرآن في مصحف موحد، بدلا من كونهمتناثرا في العسب واللخاف وقطع القماش والقراطيس والجريد...الخ.

وهذا ما قام به الامام علي(ع) من حفظه، كما تفيد الروايات، واصرحها ما نقله ابنالنديم: (فهو اول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه).

٣ ان ما قام به عثمان بن عفان، كما تفيد الروايات، كان سببه هو الاختلاف فيالقراءات، لذا فان عمل عثمان تركز في توحيد القراءات من خلال كتابة مصحف جمعفيه كامل القرآن، كما تفيد رواية ابن الاثير في الكامل.

٤ ان احتمال ان يقوم بتدوين القرآن، في مصحف موحد اكثر من صحابي في آن واحدمسالة مقبولة، ولا تعني التعارض.

ترتيب القرآن:

لقد اصطلح القدماء على ترتيب القرآن ترتيب سور القرآن وآياته داخل السورةاصطلحوا على

تسمية ذلك: بالتاليف.

فمصطلح تاليف القرآن يعني جمع آياته، وسوره حسب ترتيبها في المصحف.

جاء في المصباح المنير: (والالفة ايضا اسم من (الائتلاف) وهو الالتيامواالاجتماع...).

وجاء هذا الاستعمال على لسان زيد بن ثابت في قوله: (كنا عند النبي(ص) نؤلفالقرآن من الرقاع)(٨٣).

وقال اليعقوبي حين ذكر ترتيب سور القرآن النازلة في مكة.

قال: (وقد اختلف الناسفي هذا التاليف في غير رواية ابن عباس، وكان الاختلاف يسيرا)(٨٤).

اخرج البخاري عن ابراهيم بن موسى اخبرنا هشام بن يوسف ان جريح اخبرهم قال:واخبرني يوسف بن ماهك قال: اني عند عائشة ام المؤمنين (رض) اذ جاءها عراقيفقال: اي الكفن خير؟ قالت: ويحك وما يضرك؟ قال: يا ام المؤمنين ارني مصحفك،قالت: لم؟ قال: لعلي اولف القرآن عليه فانه يقرا غير مولف، قالت: وما يضركايه قرات قبل انما نزل اول مانزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى اذاثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل اول شيء لاتشربوا الخمر،لقالوا: لاندع الخمر ابدا، ولو نزل لاتزنوا لقالوا: لاندع الزنا ابدا، لقد نزل بمكة علىمحمد(ص) واني لجارية العب بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وامر، وما نزلتالبقرة والنساء الا وانا عنده. قال: فاخرجت له المصحف فاملت عليه آيالسورة(٨٥).

ان القرآن الذي بين ايدينا الان يحوي ترتيبين هما :

١ ترتيب الايات في سورها.

٢ ترتيب السور في المصحف.

١ ترتيب الايات في سورها:

وهذا الترتيب يشكل السياق القرآني، ويؤثر تاثيرا بالغا في المعنى، وتغييره تغيير فيبنية القرآن ومعناه.

وتثبت الروايات ان تنظيم الايات، وترتيبها ضمن كل سورة، هو تنظيم وترتيب الهي توقيفي.

قال ابن عباس: (كان جبريل اذا نزل على النبي بالوحي يقول له: ضع هذه الاية فيسورة كذا، في موضع كذا. فلما نزل عليه: (اتقوا يوما ترجعون فيه الى اللّه) قال:ضعها في سورة البقرة)(٨٦).

وكان المسلمون يعرفون ذلك حتى ان الحجاج بن يوسف الثقفي كان يخطب الناسيوما فقال: (الفوا القرآن، كما الفه جبريل(ع)(٨٧).

وتفيد الروايات التاريخية، وتؤيدها دلالات الايات ان كثيرا من الايات المتتالية فيترتيبها داخل السورة الواحدة ليس ضروريا

ان تكون نزلت متسلسلة تسلسلا زمنيا،الواحدة بعد الاخرى، بل ان هناك فترة زمنية ربما كانت طويلة بين آية واخرى، وان

مانزل بعد هذه الاية في تسلسله الزمني ربما وضع في موقع آخر، في حين وضعت آيةالى جوار الاية السابقة، رغم التباعد الزمني بينها. كما ان بعضها قد نزل في مكةالمكرمة ونجده في سورة مدنية.

ونستطيع ان ناخذ مثالا للدراسة سورة العلق، فنكتشف من خلال تحليل مضامينآياتها الفارق الزمني بين آيات تلك السورة، اذ تتكون هذه السورة من مقطعين منالايات: الاول منها يبدا من قوله تعالى: (بسم اللّه الرحمن الرحيم × اقرا باسم ربك الذيخلق × خلق الانسان من علق× اقرا وربك الاكرم الذيعلم بالقلم × علم الانسان ما لم يعلم) اما المقطع الثاني فيتكون من الايات الاخرى المتبقية من السورة.

ومن خلال الدراسة التحليلية للمصطلحات والمفاهيم والوقائع التاريخية نكتشفالفارق الزمني بين مقطعي السورة، وكما ذكر العلماء المهتمون بالنزول وتاريخ القرآن،فان آيات كثيرة نزلت بعد

مقطع الايات الاولى، وقبل آيات المقطع الثاني في حينوضعت هذه الايات في هذا الموقع من سورة العلق، ولم توضع الايات التي نزلت قبلها، كيات سورة المدثر والمزمل...الخ في هذه السورة، مما يدل على ان وضعالايات في موضعها المثبت في القرآن الكريم هو امر الهي، وقائم على اتساق وترابطسياق، كما روى ابن عباس آنفا.

ولكي يتضح ذلك ننقل آراء المفسرين التي ارخت لنزول هذين المقطعين منالايات.

قال الشيخ الطوسي: (روي عن عائشة، ومجاهد وعطاء وابن سيار: ان اول آية نزلتقوله تعالى: (اقرا باسم ربك الذي خلق) وهو قول اكثر المفسرين. وقال قوم اول مانزل قوله تعالى (يا ايها المدثر)(٨٨).

وفي الحديث عن اسباب نزول آيات المقطع الثاني قال: (وقوله: (ارايت الذي ينهىعبدا اذا صلى) تقرير للنبي(ص) واعلام له مايفعله بمن ينهاه عن الصلاة.

وقيل: ان الايات نزلت في ابي جهل بن هشام. والمراد بالعبد في الاية النبي(ص) فانابا جهل كان ينهى النبي عن الصلاة...)(٨٩).

ومن الواضح تاريخيا ان صلاة النبي المعلنة والتي كان ينهاه ابو جهل عنها تكشف انتلك الحوادث قد وقعت بعد ما كان النبي(ص) يصلي بشكل معلن، وان ابا جهل كانقد دعي الى الهدى فاعرض عن تلك الدعوة، ولم تحدث دعوة النبي لابي جهلوتكذيبه للنبي وصده له عن الصلاة ورد الرسول(ص) على ابي جهل وانتهاره له الا بعد فترة زمنية طويلة تفصل بين نزول الايات الخمس الاولى وما بعدها.

كما ان هناك سورا مكية فيها آيات مدنية، مثل سورة (القلم)، قالالطبرسي(رحمهاللّه): (وتسمى ايضا سورة: ن، وهي مكية، عن الحسن وعكرمةوعطاء، وقال ابن عباس وقتادة من اولها الى قوله: (سنسمه على الخرطوم) مكي،وما بعده الى قوله: (لو كانوا يعلمون) مدني، وما بعده الى

قوله: (يكتبون) مكي،وما بعده مدني وهي اثنتان وخمسون آية بالاجماع)(٩٠).

٢ ترتيب السور في المصحف:

ومن القضايا التي ينبغي التعرف عليها في ترتيب القرآن وتاليفه، هو ترتيب سورهبالشكل القائم بين الدفتين في المصحف المتداول بين المسلمين، والذي يبدا بسورةالفاتحة، وينتهي بسورة الناس، وبمراجعة الوثائق التاريخية المختلفة يتضح لنا ان هذا الترتيب مؤسس على اختيار عدد من الصحابة في عهد الخليفة عثمان بعد ان وحدالقراءات، واستنسخ عددا من المصاحف. فلم يكن ترتيب السور حسب نزولها مثبتافي القرآن. فالمعروف ان اول سورة نزلت من القرآن هي سورة العلق.

وقيل ان سورة العلق هي اول سورة نزلت للنبوة، وان المدثر اول سورة نزلتللرسالة(٩١).

اما آخر سورة نزلت منه فقد اختلف فيها، فقيل: سورة براءة، وقيل: سورة اذا جاء نصراللّه، وقيل: سورة المائدة، وقيل غير ذلك.

ويرجح علماء الشيعة الى ان آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى: (اليوم اكملت لكمدينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا).

وتثبت الروايات التاريخية ان هناك اكثر من ترتيب تاريخي للسور القرآنية على عهدالصحابة، ثم وحد في مصحف عثمان فتلك الروايات تذكر ان هناك ترتيبا خاصابمصحف الامام علي، كما جاء في تاريخ اليعقوبي: (وروى بعضهم ان علي بن ابيطالب(ع) كان جمعه لما قبض رسول اللّه(ص) واتى به يحمله على جمل، فقال: هذاالقرآن قد جمعته...)(٩٢).

غير ان اليعقوبي لم يذكر لنا الى من حمل علي(ع) القرآن، ومن هو المخاطب بقولعلي(ع): (هذا القرآن قد جمعته)؟

كما ان اليعقوبي لم يذكر جواب المخاطب! ثم واصل بعد ذلك حديثه عن ترتيبمصحف علي(ع): كالاتي: (وكان قد جزاه سبعة اجزاء...(٩٣).

وهناك ترتيب السور في مصحف عبد اللّه بن مسعود، وهناك ترتيب السور فيمصحف ابي بن كعب، وهناك ترتيب السور في مصحف عبد اللّه بن عباس.

والاختلاف في ترتيب السور لا يضر في معنى ونظم القرآن وسياقه ومعناه، كما هوالحال في ترتيب الايات.

والذي يبدو من هذه الصور التنظيمية المختلفة للقرآن ان تنظيمه لم يكن مسالةتوقيفية محددة في ذلك الوقت، بل كان الصحابي يدون سور القرآن ضمن الترتيبالذي يختاره.

وروايات تعدد ترتيب المصاحف تدل ايضا على ان اكثر من صحابيكان قد جمع القرآن مدونا في مصحف واحد، مما يسقط الروايات التي ذكرت انعثمان، هو اول من جمع القرآن، او ان ابا بكر هو اول من جمعه.

ومن المؤسف اننا الان لا نجد الوثائق المثبتة لتسلسل السور والايات حسب نزولهاالتاريخي بشكل دقيق وكامل، وقد ذكر ان الامام عليا(ع) كان قد رتب الايات حسبنزولها، كما انه اثبت تفسير وتاويل بعض الايات في هذا المصحف، مما يساهم في‌فهم المعنى والوقائع والحوادث ومصاديق الايات، وفهم كثير من الاحكام.

وجدير ذكره ان هناك خطا في بعض الروايات التاريخية التي ذكرت تسلسل السورحسب نزولها. فمثلا: ان ابن النديم ذكر في الفهرست(٩٤): ان سورة (الكوثر) نزلت بعد سورة(العاديات) ومما يسقط هذه الرواية ان سورة (الكوثر) نزلت في مكة بعد وفاة عبد اللّهابن النبي(ص)، اثر قول العاص بن وائل السهمي في النبي انه (الابتر) اي الذي لا ولدله يعقبه. في حين ان سبب نزول سورة (العاديات) هي احدى الغزوات (ذات‌السلاسل) وكانت الغزوات في المدينة المنورة، وبذا يكون نزولها في المدينة، كمايكون نزول الكوثر قبل نزول العاديات.

وقد انعكس هذا الاختلاف في آراء الصحابة والمفسرين فقد نقل الطبرسي في مجمع‌البيان: (سورة العاديات مدنية عند ابن عباس وقتادة، وقيل مكية) وهي في المصحف(مكية) اما الطوسي فقد

قال في التبيان: (مكية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: هيمدنية).

وقد عدها اليعقوبي: (سورة مدنية...)(٩٥).

اما ابن النديم فقد روى عن مجاهد انها (مكية)(٩٦).

ويرجح مدنيتها ان المفسرين ومن كتبوا في اسباب النزول ذكروا انها نزلت في غزوةذات السلاسل(٩٧)، اذ بعث رسول اللّه الامام عليا(ع) فحقق نصرا كبيرا فاخبر اللّه نبيهبهذا النصر بهذه السورة.

وروي ايضا (ان رسول اللّه(ص) بعث سرية الى حي بني كنانة واستعمل عليهم المنذربن عمرو الانصاري، فتاخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعا، فاخبر اللّه تعالىعنها، فانزل...والعاديات ضبحا يعني تلك الخيل)(٩٨).

ومن الواضح ان الغزوات جميعها وقعت في المدينة المنورة، لذا فان نزول هذهالسورة في المدينة يكون هو الارجح، لانها تتحدث عن الغزو واغارة الخيل.

المكي والمدني

لقد بدا نزول الوحي في مكة المكرمة في غار حراء في شهر رمضان المبارك علىالرسول(ص)، واستمر نزوله ثلاثة عشر عاما، وسمي ما نزل من القرآن في مكة(بالمكي)، وبعد هجرته المباركة الى المدينة المنورة استمر نزول الوحي عليه حتىالتحاقه بالرفيق الاعلى.

وقد استمرت هذه الفترة طوال عشر سنوات. وسمي ما نزل من القرآن في المدينة(بالمدني).

كما سمي مدنيا ايضا ما نزل على الرسول(ص) خارج المدينة في غزواته الكثيرةخارج المدينة المنورة.

حتى ما نزل منه في مكة المكرمة او على مقربة منها. فالفاصل بين المكي والمدني، هومرحلي ايضا. (مرحلة مكة والمدينة).

وليس مكانيا فحسب.

ومما اثبته الباحثون في علوم القرآن والسيرة ان آيات نزلت في المدينة قد وضعت فيسور مكية، كما في سورة ابراهيم المكية، عدا آيتين منها، كما ان آيات مكية، قدوضعت في سور مدنية.

٦٥- سورة القيامة ، الاية ١٦ ١٨ .

٦٦- مسند احمد : ٣٢٤/٥ .

٦٧- كنز العمال ، فضائل القرآن ط٢ : ٢٨٨/٢ رقم ٤٠٢٥ .

٦٨- مناهل العرفان : ص٣٠٨ .

٦٩- ابن النديم ، الفهرست : ص٣٠ .

٧٠- تاريخ اليعقوبي : ٨٠/٢ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ٣١٣/٢ .

٧١- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ج١ ص١٧٢ .

٧٢- سورة التوبة ، الاية ١٢٨ ١٢٩ .

٧٣- صحيح البخاري ، باب جمع القرآن : ٢٢٥/٣ دار المعرفة بيروت .

٧٤- البيان في تفسير القرآن للخوئي : ص ٢٦٠ .

٧٥- راجع صحيح البخاري بحاشية السندي ، باب جمع القرآن : ٢٥٥/٣ ، دار المعرفة بيروت .

٧٦- سورة الاحزاب ، الاية ٢٣ .

٧٧- راجع صحيح البخاري بحاشية السندي ، باب جمع القرآن : ٢٢٦/٣ . دار المعرفة بيروت .

٧٨- ابن النديم ، الفهرست : ص٣٧ دار المعرفة بيروت .

٧٩- تاريخ اليعقوبي : ١٣٥/٢ .

٨٠- الفهرست ، ابن النديم : ص٤١ ٤٢ .

٨١- ابن هشام ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٩٥ ٢٩٦ ط سنة ١٩٧٥ م ، دار الجيل آبيروت .

٨٢- السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ص١٠٣ ١٠٤ ، دار الفكر بيروت .

٨٣- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : المكتبة العصرية ،صيدا بيروت (ط .

سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م) / ج١ ص١٦٤ .

٨٤- تاريخ اليعقوبي : ٣٤/٢ .

٨٥- صحيح البخاري بحاشية السندي ، باب تاليف القرآن : ج٣ ص٢٧٧ ، دار المعرفة بيروت

.

٨٦- تاريخ اليعقوبي : ج٢ ص٤٣ . دار صادر بيروت .

٨٧- صحيح مسلم ج٤ : كتاب الحج ، رقم ٣٠٦ ، ص٣٥٦ ، دار الكتب العلمية بيروت ،ط .

سنة ١٤١٥ هـ .

٨٨- التبيان : ١٠ تفسير سورة العلق .

٨٩- المصدر السابق .

٩٠- مجمع البيان في تفسير القرآن : ٤٩٦/٩ ط دار المعرفة .

٩١- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : ج١ .

٩٢- تاريخ اليعقوبي : ١٣٥/٢ .

٩٣- المصدر السابق : ص١٣٥ ١٣٦ .

٩٤- ص ٣٧ .

٩٥- تاريخ اليعقوبي : ج٢ ص٤٣ .

٩٦- الفهرست : ص٣٧ .

٩٧- العلا مة السيد محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن : ج٢٠ص٣٤٥ .

٩٨- الواحدي ، اسباب النزول : ص٣٠٥ . الطوسي ، التبيان : ص٣٩٨ .

التفسير

التفسير في اللغة:

قال الراغب الاصفهاني: (الفسر: اظهار المعنى المعقول، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول:تفسرة، وسمي بها قارورة الماء، والتفسير في المبالغة كالفسر. والتفسير قد يقال فيمايختص بمفردات الالفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتاويل، ولهذا يقال تفسير الرؤياوتاويلها.

قال عزوجل: (واحسن تفسيرا)(٩٩).

(الفسر: البيان)(١٠٠).

(فسر الشيء يفسره بالكسر، ويفسره بالضم، فسرا. وفسره: ابانه.

والتفسير مثله. ابن‌الاعرابي.

التفسير والتاويل والمعنى واحد. وقوله: (واحسن تفسيرا).

الفسر: كشف المغطى. والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل. والتاويل: رد احدالمحتملين الى مايطابق الظاهر...) (١٠١).

التفسير في الاصطلاح:

واذا فالتفسير في اللغة ماخوذ من الفسر: وهو: اظهار المعنى، وكشف الغطاءوالبيان.

ومنه التفسرة: وتعني ما يستدل بها على غيرها مما يرتبط بها.اي هي اسم لعملية الكشف عن الخفي بماهو ظاهر لوجود العلاقة بينهما.

ولفظ التفسير كغيره من الالفاظ التي اصبح لها معنى خاص في اصطلاح العلماء. فهو(التفسير) اسم لعلم من اهم العلوم والمعارف الاسلامية، واكثرها اثرا في حياة الامةالفكرية والتشريعية والاجتماعية وغيرها من مجالات الحياة.

ومن استقراء التعاريف التي اوردها العلماء في كتبهم وتحديدهم لشخصية وهوية هذاالعلم واهدافه، نجد التقارب بين معناه في الاصطلاح، ومعناه في اللغة.

وقد عرفه العلماء بعبارات يختلف بعضها عن بعض احيانا. كما عرفه البعض منهم بماعرف به التاويل، فلم يفرق بينهما، بينما فرق فريق آخر من العلماء بين التفسيروالتاويل تفريقا حديا، بل واعتبر بعضهم عدم التفريق بينهما جهلا بالتفسير وبعلوم القرآن.

وقال السيوطي ناقلا عن الراغب تعريفه للتفسير: (وقال الراغب: التفسير اعم منالتاويل، واكثر استعماله في الالفاظ ومفرداتها، واكثر مايستعمل التاويل في المعانيوالجمل، واكثر ما يستعمل في الكتب الالهية. والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها) (١٠٢).

وقال غيره: (التفسير بيان لفظ لا يحتمل الا وجها واحدا...)(١٠٣).

وقال الماتريدي: (التفسير القطع على ان المراد من اللفظ هذا، والشهادة على اللّه انهعني باللفظ هذا، فان قام دليل مقطوع به فصحيح، والا فتفسير بالراي وهو المنهي عنه...)(١٠٤).

وقال ابو طالب التغلبي: (التفسير بيان وضع اللفظ، اما حقيقة، او مجازا، كتفسيرالصراط بالطريق، والصيب بالمطر. والتاويل تفسير باطن اللفظ، ماخوذ من الاول،وهو الرجوع لعاقبة الامر، فالتاويل اخبار عن حقيقة المراد، والتفسير اخبار عن دليلالمراد، لان اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى: (ان ربكلبالمرصاد)(١٠٥)، تفسيره انه من الرصد، يقال: رصدته رقبته، والمرصاد (مفعال)منه، وتاويله التحذير من التهاون بامر اللّه والغفلة عن الاهبة والاستعداد للعرض عليه،وقواطع الادلة تقتضي بيان المراد منه، على خلاف وضع اللفظ في اللغة)(١٠٦).

وقال الاصبهاني في تفسيره: (اعلم ان التفسير في عرف العلماء: كشف معاني القرآن،وبيان المراد، اعم من ان يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهروغيره، والتاويل اكثره في الجمل. والتفسير اما ان يستعمل في غريب الالفاظ نحوالبحيرة والسائبة، والوصيلة، او في وجيز يتبين بشرح، نحو: اقيموا الصلوة وآتواالزكاة، واما لكلام متضمن لقصة لا يمكن تصويره الا

بمعرفتها، كقوله: (انما النسيءزيادة في الكفر) وقوله: (وليس البر بان تاتوا البيوت من ظهورها) (١٠٧).

وقال ابو نصر القشيري: التفسير مقصور على الاتباع والسماع والاستنباط، مما يتعلقبالتاويل.

وقال قوم: ما وقع مبينا في كتاب اللّه ومعينا في صحيح السنة سمي تفسيرا، لان معناه قدظهر ووضح، وليس لاحد ان يتعرض اليه باجتهاد ولا غيره، بل يحمله على المعنىالذي ورد، لايتعداه)(١٠٨).

وقال الزركشي: (قال ابن فارس: معاني العبارات التي يعبر بها عن الاشياء ترجع الىثلاثة: المعنى، والتفسير، والتاويل، وهي وان اختلفت فالمقاصد بها متقاربة.

فاما المعنى: فهو القصد والمراد.

واما التفسير في اللغة: فهو راجع الى معنى الاظهار والكشف...

فالتفسير: كشف المغلق من المراد بلفظه، واطلاق للمحتبس عن الفهمبه...)(١٠٩).

واختلفوا فقيل: التفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل، ورداحد الاحتمالين الى مايطابق الظاهر...)(١١٠).

وقال الزركشي: (واعلم ان التفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن، وبيان المراداعم من ان يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهر وغيره،والتفسير اكثره في الجمل)(١١١).

وقد عرفه الشيخ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي بقوله: (التفسير: كشف المرادعن اللفظ المشكل)(١١٢)، كما عرف التاويل بقوله: (والتاويل رد احد المحتملين الىما يطابق الظاهر)(١١٣).

وعرفه السيد ابو القاسم الخوئي بقوله: (التفسير هو ايضاح مراد اللّه تعالى من كتابهالعزيز، فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان، ولا على شيء لم يثبت انهحجة من طريق العقل،

او من طريق الشرع للنهي عن اتباع الظن، وحرمة اسناد شيءالى اللّه بغير اذنه)(١١٤).

اما الشهيد الصدر فقد عرف التفسير بقوله: (فتفسير الكلام اي كلام معناه: الكشفعن مدلوله، وبيان معناه الذي يشير اليه اللفظ)(١١٥).

وبعد ان عرف الشهيد الصدر التفسير عرض اتجاهين لتعريف التفسير وتحديددلالته.

الاتجاه الاول: وهو الاتجاه السائد عند الاصوليين الذي لخصه بقوله(رحمهاللّه):(...وبتعبير آخر ان من اظهر معنى اللفظ يكون قد فسره، واما حيث يكون المعنىظاهرا ومتبادرا بطبيعته، فلا اظهار ولا تفسير.

وسيرا مع هذا الاتجاه، لا يكون من التفسير الا اظهار احد محتملات اللفظ، واثبات انههو المعنى المراد، او اظهار المعنى الخفي غير المتبادر، واثبات انه هو المعنى المراد،بدلا من المعنى الظاهر المتبادر. واما ذكر المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ، فلا يكونتفسيرا.

وهذا الراي يمثل الراي السائد عند الاصوليين)(١١٦).

اما الراي الثاني فهو الراي الذي تبناه هو(رحمهاللّه) بقوله: (ولكن الصحيح: هو انذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيرا ايضا، واظهارا لامر خفي، كمانه في بعض الحالات الاخرى لايكون تفسيرا، لانه يفقد عنصر الخفاء والغموض، فلايكون اظهارا لامر خفي او ازالة لغموض)(١١٧).

وعند دراسة وتحليل الرايين الذين عرضهما الشهيد الصدر رايه والراي الاخرنجدانهما متفقان في مفهوم التفسير ، ومختلفان في تحديد مصاديقه، فالتفسير عندهما هوكشف الغموض، وازالة الخفاء عن المعنى المراد للمتكلم.

اما اعتبار المتبادر من ظهور المعنى اذا كان من الدرجة المعقدة كما عبر الشهيد الصدرمن الغامض الخفي الذي يجب ان يكشف عنه او لا، فهو تشخيص مصداق، وليستحديد مفهوم.

وبذا يتضح اتجاهان في معنى التفسير:

اولهما: يحصر التفسير في اظهار احد محتملات اللفظ، واثبات انه المعنى المراد، وبذايكون من حقق ذلك قد فسر القول.

او ان يكون المفسر قد اظهر المعنى الخفي في الكلام غير المتبادر منه، واثبت ان المرادليس المتبادر، بل غيره.

وهو الاتجاه السائد لدى الاصوليين، كما يقول الشهيد الصدر.

والاتجاه الثاني: يرى ان التفسير يصدق ايضا ببيان المعنى الظاهر اذا كان في ذلكالعمل اظهار لامر خفي في الكلام.

وبعد هذا العرض لمفهوم التفسير، وتعريفه في اللغة والاصطلاح يتضح لنا معنىالتفسير واهميته في الفكر الاسلامي، فهو عبارة عن بيان المحتوى القرآني الذي يحتاج الى بيان، وكشف المراد منه، سواء اكان ذلك بيان معنى لمفردة لفظية اوجملة.

وبيان المحتوى القرآني (ومراد اللّه تعالى من كتابه). مسالة من اهم المسائل، واكثرهااثرا في حياة الامة الاسلامية.

تحدث الوحي عن مسالة البيان القرآني بقوله: (ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قراناهفاتبع قرآنه × ثم ان علينا بيانه)(١١٨) وبقوله: (...وانزلنا اليك الذكر لتبين للناسما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون)(١١٩).

وهكذا يوضح القرآن ان بيان ما كان غامضا من القرآن، لا يتضح الا ببيان الرسول(ص)وهو من مهامه(ص)، وان اللّه سبحانه قد بينه له، وكشف غوامضه.

قال الشيخ الطوسي في تفسيره لقوله تعالى: (ثم ان علينا بيانه): (والبيان اظهارالمعنى للنفس بما يتميز به من غيره بان الشيء يبين اذا ظهر، وابانه غيره، اي اظهره بياناوابانة. ونقيض البيان الاخفاء والاغماض. وقال قتادة: ثم ان علينا بيانه، معناه: انا نبينلك معناه اذا حفظته)(١٢٠).

وفسر العلامة الطباطبائي هذه الاية بقوله: (اي علينا ايضاحه عليك بعد ما كان علىناجمعه

وقرآنه، فثم للتاخير الرتبي، لان البيان مترتب على الجمع والقراءة رتبة.

وقيل: المعنى: ثم ان علينا بيانه للناس بلسانك تحفظه في ذهنك عن التغيير والزوالحتى تقراه على الناس)(١٢١).

من يفسر القرآن:

ان الحديث عن منهج التفسير في مدرسة اهل البيت، والادوات والوسائل التي توصلالى معرفة القرآن، والكشف عن معانيه، وبيان مراد اللّه تعالى منه. يقودنا الى ضرورةبيان مسالة اساسية من المسائل التي يرتبط بها فهم القرآن، واكتشاف محتواه الفكريوالتشريعي والتربوي...الخ. وهي مسالة: (من المخول بفهم القرآن وتفسيره). فقدنشات في هذا الشان عدة نظريات اساسية اثارت جدلا وخلافا بين العلماء وهي:

١ النظرية التي تذهب الى ان القرآن لا يفسره الا الرسول(ص) باعتباره المخاطب به،وهو وحده يدرك ما فيه من معان ومضامين، وهو مذهب الحشوية والمجبرة، كما ذكرالشيخ الطوسي ذلك.

٢ النظرية القائلة ان القرآن لا يفسره الا الرسول(ص) والائمة من اهل البيت(ع)باعتبارهم الحجة على الخلق بعد رسول اللّه(ص)، ووفق هاتين النظريتين يتوقفدور العقل والاجتهاد في فهم القرآن.

٣ النظرية التي تذهب الى ان القرآن خطاب عربي مبين، وان كل من عرف لغة العربيستطيع ان يفهم القرآن.

٤ النظرية التي تذهب الى ان القرآن خطاب الهي موجه الى البشرية جميعها، بلغةعربية فصيحة، وبالاعتماد على العنصر اللغوي وادوات علمية اخرى نستطيع ان نفهمالقرآن وفق ظهوره اللغوي، كما نستطيع ان نستنبط الكثير من معانيه عن طريق العقلوالتدبر، غير ان هناك بعض المعاني والمفاهيم التي يحتاج الناس في بيانها الىالرسول(ص) او الامام الذي ورث علوم الرسول(ص)

فلابد فيها من الرجوع اليه،فهو المرجع من بعده وان بيانه هو الحجة عند الخلاف في فهم القرآن، وبذا يكون فهمالقرآن والاستنباط منه عملا علميا جائزا لغير النبي(ص) والامام(ع) اذا كان قدتوفرت لديه الوسائل العلمية التي تؤهله لفهم القرآن، وهذه النظرية هي النظريةالعلمية السائدة لدى مفسري وفقهاء الشيعة الامامية، وفي ذلك تحدث الشيخ الطوسيمبينا بطلان النظريات الاولى والثانية والثالثة، واثبات النظرية الرابعة، وقد صرح بذلكعند تفسيره الاية الكريمة: (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)(١٢٢).

قال: هذه الاية الكريمة تدل على اشياء:

احدها: على بطلان التقليد، وصحة الاستدلال في اصول الدين: لانه حث ودعاء الىالتدبر، وذلك لا يكون الا بالفكر والنظر. الثاني: يدل على فساد مذهب من زعم ان القرآن لايفهم معناه الا بتفسير الرسول(ص)من الحشوية والمجبرة، لانه تعالى حث على تدبره ليعملوا به(١٢٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى: (افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها)(١٢٤) قال:معناه: (افلا يتدبرون القرآن بان يتفكروا فيه، ويعتبروا به، ام على قلوبهم قفل يمنعهم من ذلك، تنبيها لهم على ان الامر بخلافه، وليس عليها ما يمنع من التدبر والتفكر،والتدبر: النظر في موجب الامر وعاقبته. وعلى ذلك دعاهم الى تدبر القرآن.

وفي ذلك حجة على بطلان قول من يقول: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن الا بخبر وسمع)(١٢٥).

هذه الاية تدل على اشياء وذكر منها: انها تدل على فساد مذهب من زعم ان القرآنلايفهم معناه الا بتفسير الرسول من الحشوية والمجبرة، لانه تعالى حث على تدبرهليعملوا به.

وتحدث الفقيه الشهيد السيد محمد باقر الصدر(رحمهاللّه) في هذه النظريات فياحد كتبه الاصولية المدرسية فقال: (ذهب جماعة من العلماء الى استثناء ظواهرالكتاب الكريم من الحجية، وقالوا: بانه لايجوز العمل فيما يتعلق بالقرآن العزيز الا بماكان نصا في المعنى، او مفسرا تفسيرا محددا

من قبل النبي(ص) او المعصومين منآله عليهم الصلاة والسلام)(١٢٦).

وبعد ان عرف بهذه النظرية رد عليها استدلالها، وناقش ادلتها التي استدلت بها منالكتاب والروايات التي احتجت بها.

فمن القرآن استدلوا بقوله تعالى: (هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن امالكتاب واخر متشابهات) ويمكن تلخيص رد الشهيد الصدر(٢١٧) على هذا الاتجاهبالاتي:

١- رده على ما استدل به من القرآن الكريم ويبتنى على:

ا ان اللفظ الظاهر ليس من المتشابه.

ب لو سلمنا بان الظاهر من المتشابه فلا نسلم ان الاية تنهى عن مجرد العملبالمتشابه، وانما هي في سياق ذم من يلتقط المتشابهات فيركز عليها بصورة منفصلةعن المحكمات ابتغاء الفتنة، وهذا مما لا شك في عدم جوازه.

ج يلزم من قال بعدم حجية الظهور بطلان احتجاجه بهذه الاية، لانه احتجاجبظهورها.

٢- رده (١٢٨) على ما استدل به من الروايات الناهية عن العمل بظاهر الكتاب،ويلخص رده بالاتي:

ا ضعف هذه الروايات، وان رواتها في الغالب من اصحاب الاتجاهات الباطنيةالمنحرفة.

ب ان هذه الروايات معارضة للكتاب الكريم الدال على انه تبيان لكل شيء وهدىوبلاغ، والمخالف من اخبار الاحاد للكتاب لا يشمله دليل حجية خبر الواحد.

ج ما دل من الروايات على وجوب التمسك بالقرآن، ذلك لان التمسك به يعني عرفاالعمل بظواهره.

ونخلص من دراسة آراء اولئك الاعلام ان المنهج الامامي في التفسير يثبت مبدا انالقرآن يمكن ان يفسره غير النبي او الامام،يفسر ما لم يرد فيه بيان من النبي(ص) او الامام(ع) من بعده، وان الماثور الثابتالصحة هو المرجع والمقياس في التفسير والتاويل.

ولعل في ذلك الرد الكافي على الاتجاه الباطني الخارج على منهج اهل البيت(ع) كمان في ذلك

الرد الكافي على من خلط بين منهج مدرسة اهل البيت في التفسير، وبين المنهج الباطني، ولعل من اوضح صور الخلط والتشويه، وسوء الفهم المؤسف، هو ماجاء في كتاب (دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث) للدكتور عبد اللّه فهدالنفيسي. قال:

(ان نظرة الشيعة الى مصادر الشريعة الاسلامية تختلف اختلافا كليا عن نظرة السنةاليها، فالسنة تعتبر المصدر الاول للشرع القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف (السنة)والاجماع والقياس، ولكن الشيعة، في صورة عامة يتطلعون الى امام بالتعيين من قبلاللّه بواسطة رسوله يستطيع وحده تفسير القرآن، ويدرك معناه الباطني. وبسبب هذاالخلاف الجوهري في النظرة الى الاسلام، فان الشيعة تنظر الى قضية خلاص الانسانمن زاوية تختلف عن نظرة السنة. فان الخلاص البشري في نظر الشيعة، لا يتم كماترى السنة بواسطة اتباع احكام القرآن، اي ان تكون حياة المسلم منسجمة مع اوامر اللّهونواهيه، كما نصها الوحي.

وانما بواسطة امام الزمان...)(١٢٩).

وقد اكد ائمة اهل البيت(ع) في مواضع عديدة، وعلى امتداد وجودهم انهم ورثة علومرسول اللّه، ورواة معارفه، فمنها ياخذون، وعليها يؤسسون، وان كل ما صدر عنهم، هوماخوذ عما وصلهم ابا عن اب عن رسول اللّه(ص).

وفي ذلك يقول الامام الصادق(ع): (حديثي حديث ابي، وحديث ابي حديث جدي،وحديث جدي حديث ابيه، وحديث ابيه حديث علي بن ابي طالب، وحديث عليحديث رسول اللّه، وحديث رسول اللّه(ص) قول اللّه عزوجل)(١٣٠).

وسال رجل الامام الصادق(ع) فقال: (ارايت ان كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقالله: مه ما اجبتك فيه من شيء، فهو عن رسولاللّه(ص)(١٣١).

وساله احد اصحابه قال: (باي شيء يفتي الامام؟ قال: بالكتاب والسنة؟ قلت: فما لميكن في الكتاب؟ قال: بالسنة، قلت: فما ما لم يكن في الكتاب والسنة، قال: ليس شيءالا في الكتاب

والسنة. قال: فكررت مرتين او اثنتين، قال: يسدد ويوفق، فاما ما تظنفلا)(١٣٢).

وقد علق العلا مة المجلسي على ذلك بقوله: (يوفق ويسدد، اي لان يعلم ذلك منالكتاب والسنة).

وعن جابر قال: قال ابو جعفر الباقر(ع) «ياجابر لو كنا نفتي الناس برايانا لكنا منالهالكين، ولكنا نفتيهم بثار من رسول اللّه واصول علم عندنا يتوارثها كابر عن كابر،نكنزها، كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم»(١٣٣).

وتحدث الامام الحسن(ع) عن تفسير اهل البيت(ع) للقرآن فقال: «نحن حزب اللّهالغالبون، وعترة رسول اللّه(ص) الاقربون، واهل بيته الطيبون الطاهرون، واحدالثقلين اللذين خلفهما رسول اللّه(ص) في امته، تالي كتاب اللّه الذي فيه تفصيل كلشيء، لا ياتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، فالمعول علينا تفسيره، لانتظنتاويله، بل نتيقن حقائقه...»(١٣٤).

وبضم الاحاديث بعضها الى بعض، ودراستها دراسة تحليلية يتضح لنا ان الامام حينيفتي الناس بكتاب اللّه عزوجل، ويبين محتواه انما يعتمد على آثار علم من رسولاللّه(ص) وان لا شيء الا وقد نزله اللّه في كتابه، وبينه لنبيه، وان ائمة اهل البيت قدورثوا هذا البيان عن جدهم الهادي محمد(ص) فبينوه للناس، كما ان قوله(ع) «يوفق ويسدد» يوضح ان الامام بما يحمل من طهارة النفس، وكمال العلم، والتعلق المطلقباللّه تعالى، يوفق ويسدد لمعرفة ما هو غامض على غيره من كتاب اللّه عزوجل، لذاكانوا هم المرجع في فهم القرآن وتفسيره عند الخلاف.

وقد اعترف علماء الاسلام بمختلف مذاهبهم باعلمية ائمة اهل البيت(ع)ومرجعيتهم العلمية.

ومن الثابت تاريخيا، ان الصحابة جميعا كانوا يرون ان الامام عليا(ع) هو اعلمهم،ومرجعهم في الاحكام والمعارف الاسلامية، وبيان ما لم يكن جليا مشخصا منها بعدان شخص لهم الرسول(ص) هذه الحقيقة بقوله: «اقضاكم علي»(١٣٥). و «انا مدينةالعلم وعلي بابها»(١٣٦).

قال ابن عطية: (اما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن ابي طالب، ويتلوه عبد اللّهبن عباس، وهو تجرد للامر وكمله.

وقال ابن عباس: ما اخذت من تفسير القرآن فعن علي بن ابيطالب)(١٣٧).

وقد وصفت زوج الرسول(ص) عائشة عليا(ع) بقولها: (اما انه اعلم الناسبالسنة)(١٣٨).

ونقل المفسرون عن علي(ع) ان رسول اللّه(ص) دعا له ربه بان تكون اذنه هي الاذنالواعية لاحكام الشريعة، واصول الاسلام، عند نزول قوله تعالى: (وتعيها اذنواعية)(١٣٩)، فقد قال: قال (لي) النبي (ص): «سالت ربي ان يجعلها اذنك ياعلي»(١٤٠)، فقال علي(ع): «فما سمعت شيئا من رسول اللّه(ص)فنسيته»(١٤١).

وان اكثرها وضوحا والزاما، هو قول الهادي محمد(ص): «اني قد تركت فيكم ما ان‌اخذتم به لن تضلوا بعدي: الثقلين، احدهما اكبر من الاخر: كتاب اللّه وعترتي اهل‌بيتي، الا انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض(١٤٢)»، فان هذا الحديث يؤكد التلازمبين اهل البيت(ع) وبين كتاب اللّه فهم لايفترقون عنه في العلم والعمل، وبذا وجب ان‌يكونوا المرجع والمصدر في معرفة الشريعة، ورفع الاختلاف.

٩٩- معجم مفردات الفاظ القرآن : مادة (فسر) .

١٠٠- مختار الصحاح : الرازي ، مادة (الفسر) .

١٠١- ابن منظور ، لسان العرب : مادة (فسر) .

١٠٢- الاتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ .

١٠٣- الاتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ .

١٠٤- الاتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ .

١٠٥- سورة الفجر ، الاية ١٤ .

١٠٦- الاتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ ١٦٨ .

١٠٧- الاتقان في علوم القرآن : ١٦٨/٤ .

١٠٨- المصدر السابق : ١٦٨ .

١٠٩- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : ١٦٢/٢ ١٦٣ .

١١٠- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : ١٦٤/٢ .

١١١- المصدر السابق : ١٦٤ ١٦٥ .

١١٢- مجمع البيان في تفسير القرآن المقدمة : ص٨٠ .

١١٣- المصدر السابق .

١١٤- السيد الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص٤٢١ .

١١٥- علوم القرآن ، السيد محمد باقر الحكيم : ص٦٦ .

١١٦- علوم القرآن ، السيد محمد باقر الحكيم : ص٦٦ ٦٧ .

١١٧- علوم القرآن ، السيد محمد باقر الحكيم : ص٦٧ .

١١٨- سورة القيامة ، الاية ١٧ ١٩ .

١١٩- سورة النحل ، الاية ٤٤ .

١٢٠- التبيان : ١٠ / ١٩٦ ١٩٧ دار احياء التراث العربي بيروت .

١٢١- الميزان : ٢٠ / ١١٠ / ط ٢ .

١٢٢- سورة النساء ، الاية ٨٢ .

١٢٣- التبيان في تفسير القرآن : ٢٧٠/٣ . دار احياء التراث العربي .

١٢٤- سورة محمد ، الاية ٢٤ .

١٢٥- التبيان في تفسير القرآن : ٣٠٣/٩ ، دار احياء التراث العربي .

١٢٦- دروس في علم الاصول : المجلد الاول ، الحلقة الثانية ، الدليل الشرعي ص٢١٦ . ٣

ظواهر الكتاب الكريم ، دار الكتاب اللبناني بيروت (ط سنة ١٩٧٨) .

٢١٧- المصدر السابق .

٢١٨- المصدر السابق .

١٢٩- دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث : ص ٢٥ ٢٦ .

١٣٠- بحار الانوار ، المجلسي : ١٧٨/٢ ، كتاب العلم .

١٣١- الاصول من الكافي ، الكليني : ١١٢/١ .

١٣٢- المجلسي ، بحار الانوار : ١٧٦/٢ .

١٣٣- بحار الانوار ، المجلسي : ١٧٣/٢ .

١٣٤- تاريخ التواريخ : خطبة الحسن بعد البيعة .

١٣٥- الاستيعاب لابن عبد البر (المطبوع ضمن الاصابة) ٣٨/٣ ، الجراحي ، كشفالخفاء : ١٦٢/١ ح ٤٨٩ .

١٣٦- المستدرك للحاكم : ١٣٧/٣ ح٤٦٣٧ . الحموئي ، فرائد السمطين : ٩٨/١ح٦٧ .

١٣٧- تفسير القرطبي : ٢٧/١ .

١٣٨- ذخائر العقبى : ص٧٨ . الحموئي ، فرائد السمطين : ٣٦٨/١ ، ح٢٩٧ .

١٣٩- سورة الحاقة ، الاية ١٢ .

١٤٠- ابونعيم الاصفهاني ، حلية الاولياء : ٦٧/١ . الحموئي ، فرائد السمطين : ١٩٨/١ح ١٥٥ .

١٤١- رواه ابن جرير الطبري في تفسيره للاية ورواه الزمخشري في الكشاف في تفسيره للاية والسيوطي في الدر

المنثور .

١٤٢- مسند احمد بن حنبل : ٤٦٢/٣ رقم الحديث : ١١٦٧ .

المرجع في التفسير

من المجمع عليه بين المسلمين جميعا ان النبي(ص) هوالعالم بما في القرآن، وهوالمرجع والمفسر والمبين لما حوى من عقيدة وفكر واحكام وتوجيه وهداية وعلومومعارف مختلفة، فالرسول(ص) هو المخاطب بالوحي، وهو العالم بمراد اللّه تعالىمن كتابه العزيز، ومع بداهة هذا ووضوحه، ثبت القرآن مرجعية الرسول(ص) وامربالرجوع اليه، من ذلك قوله تعالى: (فان تنازعتم في شيء فردوه الى اللّه والرسول)وقال تعالى: (ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونهمنهم) وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) وقال تعالى:(وانزلنا اليك الذكر لتبين) :وقال تعالى .(للناس ما نزل اليهم) (وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهمالذي اختلفوا فيه

وهكذا يتضح ان الرسول(ص) مبلغ ومبين للقرآن، مبين بقوله وفعله وتقريره. وقددرس العلماء البيان .النبوي دراسة علمية مستفيضة في علم اصول الفقه في مباحثعلاقة السنة بالكتاب

:ويقسم البيان النبوي للقرآن الكريم الى قسمين

1- بيان المعنى: فقد فسر رسول اللّه(ص) معنى القرآن وايضاح ما قد اشكل فهمهعلى ذلك الجيل .الذي كان يتحدث بلغة القرآن، ويفهم الفاظه وخطابه اللغوي

2- بيان الجانب التطبيقي والمصداقي: وكما وضح رسولاللّه(ص) معاني القرآنومقاصده العامة، عند عدم وضوحها، قام بتطبيق احكامه وتشريعاته في مجالالعبادات والقوانين والانظمة الاجتماعية، .كاحكام الصلاة والحج والزكاة والميراث.فعرف المسلمون المقصود التطبيقي ومصداق الايات

فالسنة هي التي بينت لنا، تطبيقيا، كيفية التيمم الذي ورد في قوله تعالى: (فان لمتجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) وهي التي

.بينت لنا تفصيلات احكام الزكاة بنسبهاواعيانها الزكوية... الخ

.(...فقد جاء تشريع الزكاة مجملا في قوله تعالى: (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهمبها

والرسول(ص) هو الذي بين للامة ما المقصود بقوله تعالى: (انما يريد اللّه ليذهبعنكم الرجس اهل .(البيت ويطهركم تطهيرا

فقد روى المفسرون عن ام سلمة زوج الرسول(ص): (ان الرسول(ص) كان في بيتهاعلى منامة

له، وعليه كساء خيبري،

فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسولاللّه(ص): ادعي زوجك وابنيك حسنا وحسينا

فدعتهم، فبينما هم ياكلون اذ نزلت على رسول اللّه(ص): (انما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس

اهل البيت ويطهركم تطهيرا) فاخذ النبي(ص) بفضلة ازاره فغشاهم اياه، ثم اخرج يده من الكساء،

واوما بها الىالسماء ثم قال: اللهم هؤلاء اهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراقالها ثلاث مرات، قالت ام سلمة: فادخلت راسي في الستر فقلت: يارسولاللّه(ص)وانا معكم؟ فقال: انك الى خير، مرتين...)(١٤٣).

وبعد مرحلة النبوة والوحي جاءت مرحلة الصحابة فكانت لهم تفاسير وآراء فيما لميرد فيه بيان نبوي واضح، وكان من ابرز من كان لهم بيان وتفسير، هم: الامام علي(ع)،وعبد اللّه بن مسعود، وعبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن عمر، وغيرهم. ثم جاء منبعدهم من التابعين فكانت لهم آراء وتفسيرات.

ومن الواضح ان هذه التفسيرات كانت تختلف وتتباين احيانا، فما هو المرجح لتفسيرعلى آخر؟ ومن هو المرجع في التفسير عند الاختلاف اذن؟

وتلك مسالة علمية وعقيدية ترتب عليها بناء وامتداد فكري واسع في الامة، بلوساهم الجواب على هذين السؤالين في بنية وتكوين المذاهب الفكرية والفقهيةوالاتجاهات السياسية لدى المسلمين.

ويمكننا ان نلخص هذه الاتجاهات في اتجاهين اساسيين هما:

١ اتجاه يساوي في القيمة العلمية بين ما صدر عن الصحابة جميعا ثم التابعين منتفسير وبيان قرآني.

٢ اتجاه يؤمن بان الامام عليا(ع) ومن بعده الائمة من ذريته هم المرجع عندالاختلاف في فهم القرآن وتفسيره وهم اتباع اهل البيت(ع) (اي شيعتهم)، وان ماصدر عنهم من تفسير وبيان قرآني هو الحجة على الاخرين، وهو الرافع للاختلاف،واستدلوا على ذلك بيات وروايات عديدة كقول الرسول(ص): «اني اوشك ان ادعىفاجيب، واني تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه عزوجل وعترتي، كتاب اللّه حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي اهل بيتي، وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقاحتى يردا علي الحوض، فانظروا بم تخلفوني فيهما»(١٤٤).

وكقوله(ص) لعلي(ع): «ان اللّه امرني ان ادنيك ولا اقصيك، وان اعلمك وتعي، وحقعلى اللّه تعالى ان تعي، فنزلت: (وتعيها اذن واعية)(١٤٥).

وروى ابن عباس: ان رسول اللّه(ص) دعا لعلي(ع) بقوله:

«اللهم فقهه في الدين،وعلمه التاويل»(١٤٦).

وروى ابو بكر بن عياش محمد نصير بن سليمان الاحمسي عن ابيه عن علي قال: «واللّهما نزلت آية الا وقد علمت فيم نزلت، واين نزلت. ان ربي وهب لي قلبا عقولا، ولساناسؤولا»(١٤٧).

اللغة والتفسير

قال اللّه تعالى: (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم)(١٤٨).

(لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين)(١٤٩).

(فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا)(١٥٠).

ان المعجزة الكبرى التي تحدت العرب، رغم ماليهم من بلاغة وفصاحة وتفوقادبي، هي القرآن الكريم، والقرآن هو الخطاب الالهي الذي نزل على قلب النبي الامين محمد(ص) بلسان العرب ولغتهم، لتفهيم المخاطبين، وتيسير فهمه لهم.

قال تعالى موضحا هذه الخصيصة: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وبذاصار القرآن حجة على العرب المخاطبين به، لوضوح خطابه لديهم، فان تعذر بيانشيء لم يالفوه من المعاني والمسميات، بينه الرسول(ص) لهم باتم بيان.

والتفسير كما عرفنا، هو بيان مراد اللّه تعالى من كتابه، وهذا المراد معبر عنه بلغة عربيةفصحى، لذا فان من عرف العربية بمستوى معرفتها في عصر الوحي، يستطيع ان يفهمالقرآن الا ما كان فهمه يحتاج الى بيان من خارج حدود اللغة.

وتاسيسا على ذلك اعتبر علماء اصول الفقه الامامية الظاهر القرآني حجة، وثبتوا قاعدةعلمية لفهم القرآن وتفسيره، واكتشاف الاحكام والمفاهيم بعنوان: (حجية الظهور).

فليس القرآن رموزا باطنية، ولا اشارات معقدة، كما ذهب الباطنيون الى ذلك، اذ ردعليهم الفقهاء

هذا المذهب، وقالوا بحجية الظاهر القرآني، واستدلوا لحجية الظاهرالقرآني اي ما يفهم من ظاهر اللفظ والسياق القرآني وفق اصوله العربية انه حجة بادلةكثيرة موضحة في مواردها من علم اصول الفقه.

وفي دراسة اللغة واثرها في التفسير تبرز امامنا عدة موضوعات هي:

١- الترادف.

٢- الاشتراك.

٣- الاعراب وموقع الكلمة المفردة والجملة من الكلام.

٤- فهم معنى المفردة القرآنية.

٥- القراءة.

٦- الحقيقة والمجاز.

ولنتناول تلك الموضوعات بشيء من التفصيل ليتضح لنا كيف تعاملت مدرسة اهلالبيت مع المعنى القرآني من خلال اللغة، وكيف وظفت تلك الاداة في اكتشاف المعنىوفهمه.

١- الترادف:

من الواضح ان المفردات اللغوية هي وحدات البناء اللغوي، وان للالفاظ دلالاتوضعية على المعاني المراد التعريف بها، وان من الظواهر المالوفة في لغة العربظاهرة الاشتراك في المعنى، وهو مايسمى اصطلاحا ب (الاشتراك) اي استعمال اللفظفي اكثر من معنى. كما نجد في اللغة

العربية استعمال لفظين لمعنى واحد ويسمى(بالترادف)، كالغيم والسحاب، والعقل والنهى، والريب والشك، والبارئ والخالق.والاعتماد على المرادف اللغوي هو منهج اساسي من المناهج المتبعة في تفسيرمفردات القرآن الغريبة، ومن الامثلة العملية على وجود الترادف، وتفسيره بالمرادف، هو تفسير ابق ب (هرب)،وتفسير تفثهم ب (وسخهم)، وتفسير اعجاج ب(شديد الملوحة)، وتفسير لاريب فيه ب(لاشك فيه).

وهكذا فسرت الفاظ القرآن المفردة ذات الدلالة الغريبة على القارئ والسامع بمفردةلغوية اخرى مالوفة المعنى عنده. ولهذا الغرض اءلفت تفاسير: (مفردات غريب ألفاظ القرآن) لبيان معانيها ودلالاتها، كمفردات الراغب الاصفهاني، وغريب القرآنللسجستاني، وغريب القرآن لابي عبيدة، وغريب القرآن لابن قتيبة وغيرها كثير.

وفي الحديث عن تفسير المفردة القرآنية بمفردة اخرى مرادفة لها ينبغي دراسةوتحليل محتوى اللفظ، وتحديد معناه الذي حمله الواضع اياها. وبالتحديد ينبغي انتدرس هذه الالفاظ المترادفة، هل هي متكافئة في معناها بشكل كامل كما تتكافا قطعالنقود من فئة واحدة؟ او كما تتكافا قطع الغيار المتعددة في اداء العمل في الماكنةالواحدة، بحيث يتحقق تمام الغرض القرآني عند استعمال اي من المفردات او لا؟

لكي يتضح لنا ذلك فلنصغ الى الراغب الاصفهاني احد اعلام مفسري مفردات القرآن،ومن اوائل المؤلفين فيه، ليحدثنا عن

تفسير المفردة القرآنية بمفردة اخرى مرادفة لها.قال(رحمه‌اللّه) في مقدمة كتابه (المفردات في غريب القرآن):

«واتبع هذا الكتاب ان شاء اللّه تعالى ونسا في الاجل، بكتاب ينبئ عن تحقيق الالفاظالمترادفة على المعنى الواحد، وما بينها من الفروق الغامضة، فبذلك يعرف اختصاصكل خبر بلفظ من الالفاظ المترادفة دون غيره من اخواته، نحو ذكره القلب مرة، والفؤادمرة والصدر مرة. ونحو ذكره تعالى في عقب قصة: (ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون)وفي اعخرى: (لقوم يتفكرون) وفي اعخرى: (لقوم يعلمون) وفي اعخرى:

(لقوم يفقهون) وفي اعخرى: (لاولي الابصار) وفي اعخرى: (لذي حجر) وفي اعخرى:(لاولي النهى) ونحو ذلك مما يعده من لايحق الحق ويبطل الباطل، انه باب واحد،فيقدر انه اذا فسر الحمدللّه، بقوله الشكر للّه، ولا ريب فيه، بلا شك فيه فقد فسر القرآن،ووفاه التبيان، جعل اللّه لنا التوفيق رائدا، والتقوى سائقا، ونفعنا بما اولانا، وجعله لنامن معاون تحصيل الزاد المامور به في قوله تعالى: (وتزودوا فان خير الزادالتقوى)».

وبذا يوضح الراغب احد ائمة التفسير اللغوي ان المترادفات في اللغة غير متساوية فيالمعنى تمام التساوي، وان هناك فارقا في المعنى بين مرادف ومرادف آخر زائدا علىمرادفه، فالمترادفان بينهما اشتراك في المعنى اضافة الى معنى اضافي، غير ان المرادفيقوم بدور الوسيط في ايضاح مرادفه، وليس هو المؤدي تمام المعنى والاداء المساويمن غير فرق بينهما، ولقد طبق الراغب هذه النظرية تطبيقا عمليا على عمله التفسيريفي كتابه: (المفردات في غريب القرآن) فلم يكتف بايراد المرادف كمفسر، بل اوردهمع الفارق الاضافي من معنى مستبطن في اللفظ المستعمل قرآنيا، نعرف بعضا منهالايضاح هذه النظرية في التفسير اللغوي، فمثلا فسر كلمة (الريب) بقوله: (الريب انتتوهم امرا ما فينكشف عما تتوهمه) وفسر كلمة (الشك) بقوله: (الشك: اعتدالالنقيضين عند الانسان وتساويهما) وبذا يتضح الفارق بين الشك والريب في المعنى،في حين لم يفرق كثير من المفسرين بينهما، كما لم يفرق كثير من اصحاب القواميسبينهما.

وفسر (الامة) بقوله: (كل جماعة يجمعهم امر ما، اما دين واحد، او زمان واحد، اومكان واحد).

ولذا فكلمة امة لا تفسر بكلمة جماعة مجردة من اضافة الامر الجامع.

وهكذا فان كلمة (جماعة) لا تساوي كلمة (امة)، بشكل كامل.

وفي تفسيره (للخشوع)(بالضراعة)، وضح الفارق في المعنى بين المترادفين بقوله: (الخشوع: الضراعة،واكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة اكثر ما تستعمل في مايوجد في القلب، ولذلك قيل فيما روي: اذا ضرع القلب خشعت الجوارح، وفسر(السغب) بقوله: (هو الجوع مع التعب، وقد قيل في العطش مع التعب).

بينما فسر السغب في قواميس اللغة بالجوع مجردا من حالة التعب. وهكذا فتفسيرالسغب بالجوع مجردا، لا يؤدي الغرض القرآني من استعمال كلمة السغب، ولميستعمل كلمة جوع، لانها لا تعبر عن تمام المراد، وهو وصف الحالة التي تسيطر علىالناس في ذلك اليوم (جوع ونصب)، او (جوع يخالطه عطش وتعب) او كل هذهالحالات.

وفسر الاشفاق مفرقا بينه وبين مرادفه، الخوف، بقوله:

(والاشفاق عناية مختلطةبخوف، لان المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه.

قال: (وهم من الساعة مشفقون) فاذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه اظهر، واذا عديبفي فمعنى العناية فيه اظهر. قال: (انا كنا قبل في اهلنا مشفقين).

وفسر الهداية بقوله: (الهداية: دلالة بلطف... ثم قال: ان قيل كيف جعلت الهداية دلالةبلطف، وقد قال اللّه تعالى: (فاهدوهم الى صراط الجحيم) ويهديه الى عذاب السعير.قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى، كقوله: فبشرهمبعذاب اليم.

وبهذا التفسير نفهم الفارق بين تفسير من يفسر الهداية بانها:

دلالة بلطف، وبين منيفسرها بالدلالة كمرادف لها.

فالتفسير الاول يوضح مراد القرآن المودع في هذه الكلمة كاملا، ليوضح للناس ان اللّهسبحانه دلهم على الطريق بلطف، بينما لا يوضح التفسير الثاني عنصر اللطف فيالدلالة، لذا فهو ليس تفسيرا تاما لمراد القرآن الكريم من استعمال لفظ الهداية دونمرادفها.

٢- الاشتراك:

وبعد ان تكونت لدينا صورة عن الترادف، وعدم دقة التفسير بالمرادف،لعدم قدرتمرادفه علىاداء كامل معناه، نوضح الصنف الثاني من الاشتراك، وهو اشتراك معنيين،او اكثر بلفظ واحد.

اي ان يكون للفظ الواحد اكثر من معنى كلفظ (القرء) الذي قال فيهالراغب: (والقرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر، ولما كان اسما جامعاللامرين معا: الطهر والحيض المتعقب له، اطلق على كل واحد منهما.

والقرءاذا انفرد، كالمائدة للخوان والطعام، ثم قد يسمى كل واحد منهما بانفراده به،وليسالقرءاسما للطهر مجردا، ولااللحيض مجردا...(١٥١).

وكلفظ (المولى) الذي يعني العبد والسيد، وكلفظ (دين) الذي يعني: العادة والشانوالجزاء والمكافاة.

وعرف اللفظ المشترك بانه: (اللفظ الذي تعدد معناه، وقد وضع للجميع كلا علىحدة ولكن من دون ان يسبق وضعه لبعضها لبعض على وضعه للاخر، مثل (عين)الموضوع، لحاسة النظر، وينبوع الماء، والذهب، وغيرها(١٥٢).

وقد ذكر بعض العلماء استحالة استعمال لفظ واحد في معنيين في استعمالواحد.

وحين يرد اللفظ المشترك في القرآن الكريم ينبغي التعامل معه انه من المجملات،وينحل الاجمال بالقرائن اللفظية والسياقية وغيرها من القرائن التي توضح مراد القرآنمن المعنى المستعمل فيه.

قال الشيخ الطوسي في مقدمة تفسير التبيان: (ومتى كان اللفظ مشتركا بين شيئين او مازاد عليهما، ودل الدليل على انه لا يجوز ان يريد الا وجها واحدا، جاز ان يقال انه هوالمراد).

وقال الشيخ محمد رضا المظفر(رحمهاللّه): «ولا شك في جواز استعمال اللفظالمشترك في احد معانيه بمعونة القرينة المعينة، وعلى تقدير عدم القرينة يكون اللفظمجملا، لا دلالة له على احد معانيه»(١٥٣).

لذا ينبغي للمفسر ان يلم بهذه الاستعمالات، ويشخص القرائن المفسرة لهذاالاستعمال المجمل ليستطيع تشخيص المراد القرآني.

٣- الاعراب:

من الواضح لدى المختصين بعلم النحو ان الاعراب في حقيقته هو: عبارة عن بيانموقع الكلمة

او الجملة من الكلام، وذلك

يعتمد على فهم المعنى وتحديده، وقدوضعت علامات الاعراب للفظ المفرد لتكون دليلا على موقعه من الكلام، او علامة قرائية لبيان المعنى. والقرآن كما نعرف هو آية في البلاغة والفصاحة والاتقانللغوي، لذا فان تفسيره، وفهمه لغويا، الذي يكشف لنا عن معناه يحتاج الى فهماعراب الكلمة والجملة. وكما نعرف فان المفسر الذي عاش، او يعيش في بيئة غير بيئةاللغة القرآنية اي يعيش في غير عصر الاحتجاج اللغوي فهو ليس من اهل اللغة، كماكان المعاصرون لنزول القرآن، امثال ابن عباس، واعبي وغيرهم، انما يتعلمها تعلما.

وكما نعلم فان للنحويين مذاهب ونظريات نحوية، كما ان فهم المفسر الاعرابييختلف من شخص لاخر ، لذلك نجد الاختلاف في اعراب الكلمة والجملة القرآنيةلدى المفسرين والنحويين.

وينعكس هذا الاختلاف في الاعراب على الاختلاف في فهم المعنى واكتشافه، ممايستوجب توفر القدرة اللغوية لدى المفسر في هذا الحقل من علوم اللغة. ومساحةهذا المجال في القرآن الكريم واسعة، وذات اثر هام.

وللايضاح نذكر امثلة من الخلاف في الاعراب الذي ينتج عنه خلاف في التفسير.فالذي جاء في اعراب (الا) الواقعة في قوله تعالى: (ياايها الذين آمنوا لا تاكلوا اموالكمبينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم...)(١٥٤)... مایاتي:

ذكر العلامة الطباطبائي ان بعضهم اعربها بانها استثناء منقطع، واعربها آخرون بانهااستثناء متصل، اما هو فقد فسرها بقوله: (فتقييد الجملة، اعني قوله: لا تاكلوا اموالكمبينكم بعد تقييدها بقوله: بالباطل، النهي عن المعاملات الناقلة التي لا تسوق المجتمعالى سعادته ونجاحه، بل تضره وتجره الى الفساد والهلاك، وهي المعاملات الباطلة فينظر الدين، كالربا والقمار والبيوع الغررية... وعلى هذا فالاستثناء الواقع في قولهتعالى: (الا ان تكون تجارة عن تراض منكم) استثناء منقطع جي به لدفعالدخل...)(١٥٥).

ثم قال: (وربما يقال ان الاستثناء متصل، وقوله بالباطل قول توضيحي جي به لبيانحال المستثنى منه بعد خروج المستثنى وتعلق النهي)(١٥٦).

غير انه رفض هذا الاعراب ثم علق على ما اورد من آراء: (وهذا الذي ذكرناه من انقطاعالاستثناء هو الاوفق بسياق الاية...)(١٥٧).

وهكذا ربط العلامة الطباطبائي بين التفسير والاعراب والسياق.

ولعل من اوضح الاثار الاعرابية في تفسير القرآن هو الاختلاف في اعراب آيةالوضوء: (يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الىالمرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين...)(١٥٨).

فقد صار الاختلاف في القراءة والاعراب سببا للاختلاف في التفسير وبالتالي سببالاختلاف في حكم القدمين في الوضوء، هل هو الغسل او المسح ؟ ويلاحظ ايضا انالقراءة تؤثر بدورها في

تحديد الاعراب، فكلاهما يقوم على اساس فهم للمعنى، كمايتضح من تفسير الطوسي لهذه الاية، وللاية السابقة.

قال: (وقوله: ارجلكم الى الكعبين، عطف على الرؤوس، فمن قرا بالجر ذهب الى انهيجب مسحهما، كما وجب مسح الراس، ومن نصبها ذهب الى انه معطوف على موضعالرؤوس، لان موضعها نصب لوقوع المسح عليها، وانما جر الرؤوس لدخول الباءالموجبة للتبعيض على مابيناه. فالقراءتان جميعا تفيدان المسح على ما نذهب اليه.

وممن قال بالمسح ابن عباس والحسن البصري وابو علي الجبائي ومحمد بن جريرالطبري وغيرهم ممن ذكرناهم في الخلاف...)(١٥٩).

٤- معنى المفردة القرآنية:

ومن ضرورات التفسير هو احاطة المفسر بمعنى المفردات اللغوية، فنوع الفهمللمفردة يقود الى تحديد ما يفهمه المفسر من كتاب اللّه تعالى. فالمفردات اللغوية منالاسماء والحروف والافعال لها معان ودلالات، تجب معرفتها معرفة دقيقة، كما انلبعضها اكثر من معنى كما ذكرنا في الاشتراك، وفهم المعنى المراد في هذا الاستعمالیؤثر تاثيرا بالغا في فهم العقيدة والمعارف والاحكام الشرعية.

ومن الامثلة على ذلك هو الخلاف في تحديد معنى (ما) في قوله تعالى: «انما نملي‌لهم» ومعنى (اللام) في قوله تعالى: (ليزدادوا اثما) في الاية الكريمة: (ولا يحسبنالذين كفروا انما نملي لهم

خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين)(١٦٠).

قال المفسر الكبير الشيخ الطبرسي(رحمه‌اللّه): «و (ما) يحتمل امرين: احدهما: انيكون بمعنى (الذي) فيكون تقديره: لايحسبن الذين كفروا ان الذي نمليه لهم خيرلانفسهم، و (الاخر) ان يكون ما نملي بمنزلة (الاملاء) فيكون مصدرا لم يقتض راجعاليه».

ثم فسر معنى (اللام) بانه لام العاقبة وليس بلام الارادة. وعلى فهمه لمعنى (ما) و(اللام) فسر الاية بقوله: ثم بين سبحانه ان امهال الكفار لاينفعهم اذا كان يؤدي الىالعقاب فقال (ولا يحسبن) ايلايظنن (الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم) اي ان اطالتنا لاعمارهم، وامهالناياهم، خير لهم من القتل في سبيل اللّه باحد، لان قتل الشهداء اداهم الى الجنة، وبقاءهؤلاء في الكفر يؤديهم الى العقاب، ثم ابتدا سبحانه فقال: (انما نملي لهم) اي: انمانطيل عمرهم، ونترك المعاجلة لعقوبتهم (ليزدادوا اثما) اي: لتكون عاقبة امرهمبازديادهم الاثم فيكون اللام لام العاقبة. مثل اللام في قوله: (فالتقطه آل فرعونليكون لهم عدوا وحزنا) وهم انما اخذوه ليكون لهم سرورا وقرة عين، ولكن لما علماللّه انه يصير في آخر امره عدوا وحزنا قال كذلك، ومثله في قول الشاعر: اموالنا لذوي الميراث نجمعهاودورنا لخراب الدهر نبنيها وقول الاخر:

ءاءم سماك فلا تجزعيفللموت ما تلد الوالدة وقول الاخر:

فللموت تغذو الوالدات سخالهاكما لخراب الدهر تبنى المساكن وقول الاخر: لدوا للموت وابنوا للخراب، ولا يجوز ان يكون اللام لام الارادةوالغرض لوجهين: (احدهما) ان ارادة القبيح

قبيحة.وتلك عنه سبحانه منفية (والاخر) انها لو كانت لام الارادة لوجب ان يكون الكفارمطيعين للّه تعالى، من حيث فعلوا ما وافق ارادته، وذلك خلاف الاجماع. وقد قال عزاسمه: (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذناللّه) (وما اءمروا الا ليعبدوا اللّه) والقرآن يصدق بعضه بعضا، وعلى هذا فلابد منتخصيص الاية فيمن علم منه انه لا يؤمن، لانه لو كان فيهم من يؤمن لما توجه اليهمهذا الوعيد المخصوص، وقال ابو القاسم البلخي معناه ولا يحسبن الذين كفروا انماملاءنا لهم رضا بافعالهم، وقبول لها، بل هو شر لهم، لانا نملي لهم، وهم يزدادون اثمايستحقون به العذاب الاليم، ومثله: ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس، اي: ذراناكثيرا من الخلق سيصيرون الى جهنم بسوء افعالهم، وقد يقول الرجل لغيره، وقدنصحه فلم يقبل نصحه: ما زادك نصحي الا شرا و وعظي الا فسادا، ونظيره قوله:(حتى انسوكم ذكري) ومعلوم ان الرسل ما انسوهم ذكر اللّه على الحقيقة، وما بعثواالا للتذكير والتنبيه دون الانساء مع ان الانساء ليس من فعلهم، فلا يجوز اضافته اليهم،ولكنه انما اضيف اليهم، لان دعاءه اياهم لما كان لاينجع فيهم، ولا يردهم عنمعاصيهم، فاضيف الانساء اليهم، وفي هذا المعنى قوله حكاية عن نوح:

(فلم يزدهمدعائي الا فرارا).

وروي عن ابي الحسن الاخفش والاسكافي (انما) الاخيرة مفتوحة الهمزة، لانهامعمول ليحسبن على هذا القول، وان يكون انماالاولى مكسورة الهمزة، لانها مبتدا على هذا القول،

والتقديموالتاخير لايغيران الاعراب عن استحقاقه، وذلك خلاف ماعليه القراءة، لان القراء قداجمعوا على كسر الثانية، واكثرهم علىفتح الاولى».

ومن امثلة تاثير فهم معنى المفردات اللغوية على فهم مراد اللّه تعالى من كتابه، هواختلاف المفسرين في فهم المراد من حرف (الى) في قوله تعالى: (واذا قمتم الىالصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق).

فقد فسرها بعضهم بمعنى: الغاية والانتهاء، اي منتهى ما يطلب غسله من اليد، وهذايعني ان الابتداء في الغسل من رؤوس الاصابع. وفسرها البعض الاخر بانها تعني(مع).

قال الطوسي(رحمهاللّه) (وقوله: وايديكم الى المرافق، منصوب بالعطف علىالوجوه الواجب غسلها.

ويجب عندنا غسل الايدي من المرافق، وغسل المرافق معها الى رؤوس الاصابع، ولايجوز غسلها من الاصابع الى المرافق. و (الى) في الاية بمعنى (مع)، كقوله: (لا تاكلوااموالهم الى اموالكم...)(١٦١).

٥- القراءة:

والمقصود هنا القراءة القرآنية، وهي مصطلح من المصطلحات المتداولة في علومالقرآن، وقد عرفت بانها: (النطق بحروف القرآن كما نطق بها النبي(ص)(١٦٢).

لقد نزل القرآن الكريم من رب العزة على النبي الامين محمد(ص) بلسانه الذي ينطقبه، لذا فان نزوله كان بقراءة واحدة، كما ورد عن ائمة اهل البيت(ع) وكما يفهم منقوله تعالى: (انما يسرناه بلسانك) وقال تعالى: (فاذا قراناه فاتبع قرآنه).

فالاية الاولى صريحة بان القرآن انزل بلسان قريش (بلهجتها) وانه بهذه اللغة واللهجةقرئ على النبي الكريم محمد(ص) ولم ينزل بقراءات متعددة، فقد ورد في رواياتجمع القرآن ان عثمان بن عفان قال للرهط القرشيين الثلاثة بعد ان كلفهم بجمع القرآن: «اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القراءات فاكتبوه بلسان قريش فانما نزلالقرآن بلسانهم».

وقد ورد عن ائمه اهل البيت(ع) ان القرآن نزل بحرف واحد على النبي الكريم(ص)،فقد جاء عن الامام ابي جعفر الباقر(ع): (ان القرآن واحد، نزل من عند واحد، ولكنالاختلاف يجي من قبل الرواة)(١٦٣).

وذهب بعض علماء المسلمين الى ان القرآن نزل على سبعة احرف، واولوا ذلك بانهنزل على سبع قراءات، معتمدين على روايات آحاد لاتصمد امام الحوارالعلمي(١٦٤).

ويؤيد ذلك ان عثمان بن عفان حين وضع المصحف الامام انما اراد توحيد القراءات بعد ان اختلف الناس في الامصار، وتعددت قراءاتهم، وتشير الروايات الكثيرة الى انسبب وضع مصحف موحد بامر من عثمان بن عفان، هو الاختلاف في القراءات، كماروى البخاري عن انس ان حذيفة بن اليمان افزعه الاختلاف في القراءة، بعد ان سمعاختلاف اهل ارمينية واهل العراق واذربيجان

والشام، فاخبر عثمان بن عفان بذلك،فاقدم عثمان على جمع الناس على قراءة واحدة، وارسل سبعة مصاحف الى مكةوالشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس واحدا بالمدينة(١٦٥).

(وقال الحارث المحاسبي: المشهور عند الناس ان جامع القرآن عثمان، وليس كذلك،انما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهدهمن المهاجرين والانصار لما خشي الفتنة عند اختلاف اهل العراق والشام في حروفالقراءات. فاما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات علىالحروف السبعة...)(١٦٦).

ويمكننا تلخيص الاراء الاساسية في مدرسة الشيعة الخاصة بالقراءات بالاتي:

١- ان القرآن نزل بقراءة واحدة على النبي محمد(ص).

٢- القراءات المتعددة غير متواترة وطرقها آحاد.

٣- ان الاختلاف في القراءة، هو من اجتهاد القراء، ومن قبل الرواة.

٤- ان بعض القراءات يغير المعنى، وهذا التغيير هو تحريف للقرآن.

٥- جوز فقهاء الشيعة الامامية القراءة بالقراءات السبع، كما جوزوا القراءة بغيرها منالقراءات المتعارفة في عهد ائمة اهل البيت (ع) (١٦٧)، وللايضاح ننقل عن السيد الخوئي(رحمه اللّه) قوله: (يجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة فيزمان اهل البيت(ع)، والواجب هو قراءة القرآن بخصوصه، لا ما تصدق عليه القراءةالعربية الصحيحة.

نعم الظاهر جواز الاكتفاء بكل قراءة متعارفة عند الناس، ولو كانتمن غير السبع)(١٦٨).

وقال الطوسي: (فالوجه الاخير اصلح الوجوه على ماروي عنهم(ع) من جواز القراءةبما اختلف القراء فيه)(١٦٩).

ويبدو ان المستند لما ورد اعلاه كما يتضح من السيد ابو القاسم (رحمهاللّه) هو ماروي عن ائمة اهل البيت(ع): «اقراوا كما يقرا الناس»(١٧٠) و «اقراوا كماعلمتم»(١٧١).

٦- عدم حجية القراءات السبع وغيرها في الاستنباط، فلا يستدل بها على الحكمالشرعي، اي ان الفقيه لا يعتمد في استنباط الحكم من القرآن الكريم على قراءة احدالقراء باعتبارها حجة(١٧٢).

وينبغي ان نوضح هنا ان القرآن هو غير القراءة، كما يؤكد العلماء، (ان تواتر القرآن لايستلزم تواتر القراءات)(١٧٣).

فالقرآن هو ما نزل على النبي محمد(ص) من الوحي بلفظه ومعناه ونظمه. والقراءةهي النطق بالقرآن.

والقراءة يجب ان تؤخذ عن النبي(ص) كما تلقاها عن رب العزة، قال تعالى: (فاذاقراناه فاتبع قرآنه) فان النطق بالقرآن المغاير للكيفية التي قرا بها الرسول الامينمحمد(ص) غير جائز، انما اجاز العلماء القراءات التي لا تخل بالمعنى الذي تضمنهالقرآن، والتي لم ترد فيها قراءة معتمدة عن النبي(ص).

وينبغي الانتباه هنا الى حقيقة بلاغية، وهي ان اللّه سبحانه حينما اختار هذا المفرداللغوي دون غيره، ووضعه الى جنب لفظ دون غيره، كان الاختيار لحكمة اعجازية،فايقاع الحروف، وتناسق

النطق بها، والتناغم بين الكلمات والحروف والاصواتوغيرها، كلها من مقاصد الصياغة القرآنية، لذا فان استبدال كلمة بكلمة اخرى فيالقراءة التي هي من قبيل التفسير لايحفظ جمال القرآن واعجازه. فقوله تعالى:(كالعهن المنفوش) لايساويه في الصياغة والبلاغة: كالصوف المنفوش، كما فيبعض القراءات (كما يروى عن ابن مسعود).

ونخلص في نهاية المطاف الى ان لا صحة للراي القائل: ان القرآن نزل على سبعةاحرف، فقد رد العلماء المحققون هذه الروايات، كما اكدوا ان القراءات السبعةالمشهورة، ليست هي القراءات الوحيدة، بل هناك قراءات عشر واربع عشرة، وانحصر القراءات في سبعة، كما ذكرنا جاء متاخرا، ويعود تمييز هذه القراءات عن غيرهاوتبنيها بالشكل المتميز الى الامام ابي بكر احمد بن موسى بن العباس بن مجاهدببغداد على راس الثلاثمائة من الهجرة...(١٧٤).

وفيما يلي نذكر نموذجا لاختلاف القراءات، وتعددها، واثرها في المعنى:

(ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهمعذاب مهين).

« القراءة » قرا ابن كثير وابو عمرو ولا يحسبن الذين كفروا ولا يحسبن الذين يبخلونولا يحسبن الذين يفرحون كلهم بالياء وكسر السين، وكذلك فلا يحسبنهم بضم الباءوالياء وكسر السين، وقرا حمزة كلها بالتاء وفتح السين وفتح الباء من يحسبنهم، وقرااهل المدينة والشام ويعقوب كلها بالياء، الا قوله فلا تحسبنهم بالتاء، وفتح الباء، الا ناهل المدينة ويعقوب كسروا السين،

وفتحها الشامي، وقرا عاصم والكسائي، وخلف،كل ما في هذه السورة بالتاء الا حرفين، ولا يحسبن الذين كفروا، ولا يحسبن الذينيبخلون، فانهما بالياء، غير ان عاصما فتح السين، وكسرها الكسائي.

« الحجة والاعراب » من قرا بالياء فالذين في هذه الاية في موضع الرفع بانه فاعل واذاكان الذين فاعلا، ويقتضي حسب مفعولين، او ما يسد مسد المفعولين، نحو حسبت انزيدا منطلق، وحسبت ان يقوم عمرو، فقوله تعالى: (انما نملي لهم خير لانفسهم) قدسد مسد المفعولين الذين يقتضيهما يحسبن. (وما) يحتمل امرين (احدهما) ان يكونبمعنى الذي فيكون تقديره لا يحسبن الذين كفروا ان الذي نمليه لهم خير لانفسهم(والاخر) ان يكون ما نملي بمنزلة الاملاء، فيكون مصدرا، واذا كان مصدرا لم يقتضراجعا اليه، وقال المبرد من قرا يحسبن بالياء فتح ان، ويقبح الكسر مع الياء، وهو جائزعلى قبحه، لان الحسبان ليس بفعل حقيقي، فهو يبطل عمله مع ان المكسورة، كمايبطل مع اللام، كما يجوز حسبت لعبد اللّه منطلق يجوز على بعد حسبت ان عبد اللّهمنطلق، وقال ابو علي الوجه فيه ان يتلقى بها القسم، كما يتلقى بلام الابتداء، وتدخلكل واحد منهما على الابتداء والخبر، فكانه قال: لا يحسبن الذين كفروا للاخرة خيرالهم، واما قراءة حمزة بالتاء من تحسبن، وبفتح ان، فقد خطاه البصريون في ذلك، لانهيصير المعنى ولا تحسبن الذين كفروا املاءنا، وذلك لا يصح، غير ان الزجاج قال:يجوز على البدل من الذين، والمعنى ولا تحسبن املاء للذين كفروا خيرا لهم، ومثلهفي الشعر.

وما كان قيس هلكه هلك واحدولكنه بنيان قوم تهدما قال ابو علي: لا يجوز ذلك لانك اذا ابدلت ان من الذين كفروا لزمك ان تنصب خيرامن حيث كان المفعول الثاني، ولم ينصبه احد من القراء واذا لم يصح البدل لم يجز فيهالا كسر ان على انه يكون ان وخبرها في موضع المفعول الثاني من تحسبن)(١٧٥).

ومن خلال ما تقدم من حوارات بين القراء يتضح لنا اثر القراءة في تحديد المعنى

التفسير والسياق القرآني

عرف الشهيد الصدر السياق واثره في فهم مراد المتكلم بقوله: «... ونريد بالسياق كل ما يكشف اللفظ الذي نريد فهمه من

دوال اخرى، سواء كانتلفظية، كالكلمات التي تشكل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاما واحدا مترابطا، او حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام، وتكون ذات دلالة فيالموضوع...»(١٧٦).

الواضح ان المتكلم والكاتب حينما يرتب افكار الحديث والفاظه او موضوعهالكتابي، ويضع العبارات في سياق متتابع، فيضع هذه العبارة في موقع معين، ويضعغيرها في موضع آخر، وهو ملتفت

الى ما يفعل، وقاصد لذلك انما يريد ان يوضحمراده بتنظيم كلامه، وترتيب افكاره وعباراته، وبعبارة اخرى يكون السياق او البنيةالمتتالية للنص قرينة يلجا اليها في فهم مراده وقصده من كلامه.

والقرآن الحكيم هو كلام اللّه تعالى المتصف بالدقة والاتقان، لذا فان اختيار هذهالمفردة دون غيرها لم يكن امرا جزافا، بل

لغرض وغاية ترتبط بالبلاغة والمعنى.

والقرآن قد نظم بمشيئة الهية على شكل سور، تشكل كل سورة منه وحدة قرآنيةمستقلة، كما ان موضع كل كلمة وجملة وآية في القرآن، قد حدد تحديدا الهيا في سياقالسورة وبنيتها لابراز المعنى المراد.

وقد بين ابن عباس اهتمام الوحي بالسياق القرآني، وان موضع الاية في السورة منالقرآن انما هو وضع الهي، اي جزء من الهية القرآن.

وبين ذلك بقوله (رض): «كان جبريل(ع) اذا نزل على النبي محمد(ص) بالوحييقول له: ضع هذه الاية في سورة كذا، في موضع كذا. فلما نزل عليه: (اتقوا يوماترجعون فيه الى اللّه) قال: ضعها في سورة البقرة».

لذا فان الاية السابقة واللاحقة كثيرا ما تعين على فهم الاية ذات العلاقة بها، ومعرفةدلالتها ومصداقها الا اذا وجدنا قرينة

اخرى مفسرة على خلاف السياق، كسببالنزول، او بيان نبوي... الخ.

ولننقل مثالا على اثر السياق في تفسير المعنى عن المفسر الكبير الشيخالطبرسي(رحمهاللّه)

قال:

«النظم: ووجه اتصال قوله (وليس البر بان تاتوا البيوت من ظهورها (١٧٧) بقوله(يسالونك عن الاهلة) انه لما بين ان الاهلة مواقيت للناس والحج، وكانوا اذا احرموايدخلون البيوت من ورائها عطف عليها قوله (وليس البر بان تاتوا البيوت منظهورها) وقيل: انه لما بين ان امورنا مقدرة باوقات قرن به قوله (وليس البر بان تاتواالبيوت من ظهورها) اي فكما ان اموركم مقدرة باوقات، فلتكن افعالكم جارية علىالاستقامة باتباع ما امر اللّه به، والانتهاء عما نهى عنه، لان اتباع ما امر به، خير من اتباع مالم يامر به».

٦ الحقيقة والمجاز:

من المباحث الاساسية في علوم اللغة هو مبحث الحقيقة والمجاز، وهو من مباحثعلم البلاغة، واستعمال الحقيقة والمجاز من الاستعمالات الشائعة في لغة العربشيوعا واسعا، كقولهم للشجاع (اسد)، ولجميل الوجه (قمر)، ولكثير العلم (بحر).

ويشكل مبحث (الحقيقة والمجاز) احد البحوث الاساسية في علم البلاغة، ولهذاالمبحث تاثير بالغ في فهم دلالة كثير من الالفاظ القرآنية وتاويلها، لا سيما ذاتالدلالة العقيدية التي تحدثت عن الصفات، فقد ساهم حمل اللفظ على الحقيقة اوالمجاز في تحديد المعتقد، ونسبة الصفة الى اللّه

تعالى، وكان هذا الحمل هو الفاصلبين الفهمين، والمميز بين التجسيم والتشبيه، وبين التنزيه عن المشابهة.

ومن الامثلة على ذلك تاويل قوله تعالى: (وسع كرسيه السماوات والارض) علىاساس حمل الاستعمال على المجاز، ف (الكرسي) في هذه الاية كناية عن الملكوالسلطان، وليس الكرسي بمعناه الحسي، فاستعمله القرآن مجازا، ولم يستعمله علىنحو الحقيقة.

وكقوله تعالى: (يد اللّه فوق ايديهم)، ف (يد اللّه) في هذه الاية كناية عن الهيمنة والقهروالسلطان، وليست اليد بمعناها الحسي فاللفظ مستعمل في المجاز، وليس فيالحقيقة.

وكل تلك الاستعمالات هي من الاستعمال المجازي، فان حملها على الحقيقة يقودالى التجسيم والتشبيه، وهو سبحانه منزه عن ذلك، فهو كما وصف نفسه: (ليسكمثله شيء وهو السميع البصير).

ومثلها قوله تعالى: (وجاء ربك والملك صفا صفا) فقد فسره الزمخشري بقوله:(واعلم ان الكلمة كما توصف بالمجاز، لنقلها عن معناها الاصلي، كما مضى، توصفبه ايضا لنقلها عن اعرابها الاصلي الى غيره، لحذف لفظ او زيادة لفظ. اما الحذففكقوله تعالى: (واسال القرية) اي اهل القرية. فاعراب القرية في الاصل هو الجر،فحذف المضاف، واعطي المضاف اليه اعرابه.

ونحوه قوله تعالى: (وجاء ربك)، اي امر ربك...)(١٧٨).

وهكذا يتضح الفارق العقيدي بين من يجعل المجيء للّه، وهو يعني الانتقال والحركةاللتين يتنزه اللّه عنهما، وبين من يجعل المجي لامر اللّه، كما فسره الزمخشري، محمولاعلى المجاز.

واعتماد المجاز في التفسير منهج لغوي اتبعه معظم المفسرين من مختلف المذاهبالاسلامية، عدا اهل الظاهر والحشوية وامثالهم من المشبهة والمجسمة.

١٤٣- روي الحديث في غاية المرام عن عبد اللّه بن احمد بن حنبل بثلاث طرق عن امسلمة وكذا عن تفسير الثعلبي وكثير غيرهما .

١٤٤- سنن الترمذي : ٦٢٢/٥ / ٣٧٨٨ مناقب اهل البيت : . والحاكم في مستدركالصحيحين : ١٠٩/٣ . واحمد بن حنبل في مسنده : ١٧/٣ . والطبراني في المعجمالكبير : ٥/ ح ٤٩٢١ ، ٤٩٨٠ ٤٩٨٢ ، ٥٠٢٥ ٥٠٢٨ ، ٥٠٤٠ ، ٤٩٢٣ .

١٤٥- الواحدي ، اسباب النزول : سورة الحاقة .

١٤٦- ابن الاثير ، النهاية : ج١ ص٨٠ .

١٤٧- حلية الاولياء لابي نعيم الاصفهاني : ج١ ص٦٧ ٦٨ .

١٤٨- سورة ابراهيم ، الاية ٤ .

١٤٩- سورة النحل ، الاية ١٠٣ .

١٥٠- سورة مريم ، الاية ٩٧ .

١٥١- المفردات في غريب القرآن ، مفردة : قرء .

١٥٢- محمد رضا المظفر ، المنطق : ٤٤/١ .

١٥٣- اصول الفقه : ٣٢/١ .

١٥٤- سورة النساء ، الاية ٢٩ .

١٥٥- الميزان في تفسير القرآن : ج٤ تفسير سورة النساء ، الاية ٢٩ .

١٥٦- الميزان في تفسير القرآن : ج٤ تفسير سورة النساء ، الاية ٢٩ .

١٥٧- الميزان في تفسير القرآن : ج٤ تفسير سورة النساء ، الاية ٢٩ .

١٥٨- سورة المائدة ، الاية ٦ .

١٥٩- التبيان في تفسير القرآن : ج ٤٥٢/٣ وما بعدها . دار احياء التراث العربيبيروت .

١٦٠- سورة آل عمران ، الاية ١٧٨ .

١٦١- التبيان في تفسير القرآن : ٤٥٠/٣ .

١٦٢- الدكتور عبد الهادي الفضلي ، القراءات القرآنية : ص٥٦ ، دار القلم بيروت (ط٣ سنة ١٤٠٥) .

١٦٣- الكليني ، الاصول من الكافي : ٦٣٠/٢ . دار الكتب الاسلامية طهران .

١٦٤- ابو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص١٣٧ .

١٦٥- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ١٧٢/١ . وقيل : ارسل باربعة ،وقيل

: بخمسة .

١٦٦- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ١٧١/١ .

١٦٧- ابو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص١٨٣ .

١٦٨- ابو القاسم الخوئي ، تعليقة على متن العروة الوثقى : ٥٠٢/١ .

١٦٩- التبيان : ج١ ص٩ . دار احياء التراث العربي .

١٧٠- الكليني ، الكافي : ٦٣٣/٢ .

١٧١- الكليني ، الكافي : ٦٣١/٢ .

١٧٢- ابو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ١٨٠ .

١٧٣- ابو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص١٧٤ .

١٧٤- ابو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص١٧٦ .

١٧٥- الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن .

١٧٦- دروس في علم الاصول : ح١ ، مبحث حجية الظهور .

١٧٧- سورة البقرة ، الاية ١٨٩ .

١٧٨- الزمخشري ، الايضاح في علوم البلاغة : ص١٨٢ .

التأويل

التاويل والتفسير مصطلحان قرآنيان نطق بهما القرآن، ثم استعملهما المسلمون بعدذلك، ولقد اصبح التفسير والتاويل علمين من اكثر علوم القرآن اهمية، واثرا في الفكروالتشريع والمعارف الاسلامية.

قال اللّه تعالى: (...ولا ياتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا)(١٧٩) وقالتعالى: (...ذلك خير واحسن تاويلا)(١٨٠).

(...واما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويلهوما يعلم تاويله الا اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)(١٨١).

(هل ينظرون الا تاويله يوم ياتي تاويله...)(١٨٢).

التاويل في اللغة:

عرف اللغويون معنى التاويل في اللغة، واوضحوه بشكل محدد ودقيق، نذكر من تلكالتعاريف:

قال الفيومي في المصباح المنير « آل الشيء (يؤول) (اولا) و (ملا) رجع».

وقال ابن الاثير في النهاية: (والتاويل: هو من الشيء يؤول الى كذا، اي رجع، وصارالية...).

وقال الراغب الاصفهاني: (التاويل من الاول، اي الرجوع الى الاصل. ومنه الموئلللموضع الذي يرجع اليه. وذلك هو رد الشيء الى الغاية المرادة منه، علما كان او فعلا،ففي العلم نحو: (وما يعلم تاويله الا اللّه والراسخون في العلم...) وفي الفعل كقولالشاعر:وللنوى قبل يوم البين تاويل)

وقوله تعالى: (وهل ينظرون الا تاويله يوم ياتي تاويله) اي بيانه الذي هو غايتهالمقصودة منه.

وقوله تعالى: (ذلك خير واحسن تاويلا) قيل احسن معنى وترجمة(١٨٣).

ولقد ساهم علم التاويل مساهمة فعالة واساسية في فهم آيات الاعتقاد، لاسيماالمتعلقة بصفات اللّه تعالى.

وقد حدثت على مر العصور معركة فكرية حامية حول منهج التاويل وما انتجه من فكرومعرفة، وعرض الفكر الشيعي لنقد حاد من خصومه، بسبب اهتمامه بالتاويل،واعتماده اساسا في حفظ التوحيد نقيا من التشبيه والتجسيم.

ومن الواضح تاريخيا ان التاويل منهج علمي اسلامي عام وليس منهجا شيعيا او معتزلياخاصا، كما يتصور البعض. هو وسيلة تعبيرية من صميم الطبيعة اللغوية، لذا فمنهجالتاويل فرضته حقائق علمية ولغوية، وليس منهجا مرتجلا عبثيا. ومن دراسة وتحليلمعنى وتعريفات التاويل، وما ورد في الكتاب والسنة فيه، والوقوف على مصاديقه،وموارد انطباقه، والنتائج الفكرية التي افرزها هذا المنهج، نستطيع ان نستنتج الاتي:

١- ان التاويل اسلوب معرفي عام يستعمله العقل البشري لاكتشاف الغوامض ممايشير اليه اللفظ او الحدث او الرمز، فقد اعتاد الناس ولاسباب فنية ان يعبروا عنمقاصدهم احيانا بطريقة لاتكشف الا بالتاويل، كما ان بعض الافعال والحوادثالصادرة عن الانسان او الحيوان او النبات او الجماد انما هي رموز تكشف عن حقيقةغير مصرح بها في ذلك الفعل او الحدث، واستنتاجها هو

التاويل.

٢- ان التاويل هو منهج نطق به القرآن، وبالتالي فهو منهج مشروع، لو احسن استخدامهوتطبيقاته بعيدا عن المحاذير التي حذر منها القرآن بقوله: (...ابتغاء الفتنة).

٣- ان طبيعة البيان القرآني حوت المحكم والمتشابه، كما نص القرآن على ذلك، وانالمتشابه يحتاج فهمه في كثير من الاحيان الى التاويل والى رده الى المحكم.

٤- ان هناك معان عقيدية ترتبط بالذات الالهية، وبعالم الغيب وهي منزهة عن الماديةوالحسية، لابد من تفهيمها الانسان، وذلك التفهيم يقتضي التعبير عنها بالفاظ لغوية،كصفة الحب والعلم والحياة والسمع والبصر واليد والكرسي والاستواء والغضبوالارادة والمكر والخديعة والكراهية والاسف والسخط والرضا... الخ وصف اللّهسبحانه نفسه بها.

والمتلقي حين يتعامل مع تلك الصفات تعاملا ظاهريا، وفق اللفظ الظاهري، فانه يقعفي الشرك، ويفهمها من خلال فهمه للصفات الانسانية، فلا يفرق بين مصاديق تلكالصفات، فبعضها، حسب دلالتها الحسية، تعبر عن صفات انفعالية كما في عالمالانسان النفسي والانفعالي كصفة المكر والخديعة والغضب.

اما حين يوصف بها الخالق العظيم فيجب تنزيهه عن مشابهة الخلق، وعن كل قبيح،فهو سبحانه وصف نفسه بقوله: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

ودعا في موارد عديدة من كتابه الكريم الى التسبيح، واكد ان كل مافي هذا الوجود منعوالم انما هو مسبح يشهد بتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فليس علمه كعلمالمخلوقين، ولا حبه وارادته وغضبه ورضاه، كالذي يحدث في النفس الانسانية،وليس مكره وخديعته كالصفة الاخلاقية الذميمة عند الانسان، وليس بين الحقيقتين الا الاشتراك اللفظي دون المعنوي، فمعنى المكر الذي وصف اللّه به نفسه سبحانه، هوايقاع المجرمين في حبائل جرائمهم، من حيث لايشعرون.

وحين يستعمل القرآن تلك الالفاظ لوصف التعامل الالهي مع الانسان انما استعملهالانها ادوات لتفهيم الفكرة للانسان، والتي تعين على ادراك صفات الذات والافعالالالهية ادراكا تحدده ضوابط التنزيه ونفي المشابهة، وان من ضوابط التنزيه هو التاويلاي حمل الالفاظ على المعاني غير المنطبقة على المعاني الحسية المالوفة في عالمالانسان، وبيان المقصود القرآني منها، وفق ضوابط لغوية. واسس قرآنية دالة علىذلك.

٥- ان من مقتضيات التاويل في القرآن الكريم هو ان اللغة العربية لغة غنية بالمجاز،وقد زخرت الايات الكريمة بالمجاز الذي ينطلق من الاستعمال الحسي ليعبر عنالمجرد المعنوي، فكلمة اليد واليمين والوجه والعرش والكرسي، التي استعملهاالقرآن في وصف الباري، عز ذكره، بها نفسه فقال:

(يد اللّه فوق ايديهم)

(والسماواتمطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون)

(... اينما تولوا فثم وجه اللّه)

(وكان عرشه على الماء).

(وسع كرسيه السماوات والارض)

ان كل تلك المعاني انما هي معان مجازية، فاليد في عالم الانسان مثلا اسم لتلكالجارحة الحسية، وبما انها اداة القوة والاحسان وغيرها من الافعال كني بها عنالاحسان والقوة، فقيل (يد اللّه فوق ايديهم) اي هو المهيمن والمتفوق عليهم.

ومن المفيد هنا ان ننقل آراء المفسرين من مختلف المذاهب الاسلامية ليتضح لنا انعلم التاويل منهج اسلامي عام اولا، وثانيا هو طريقة موضوعية افرزتها طبيعة اللغةالعربية، وضرورة لتفهيم المعنى المجرد بطريقة حسية، وليس منهجا تحميليا، لذا فانالتحميل ليس تاويلا انما هو عبث وقول بغير علم، هاجمه القرآن بقوله:

(واما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله).

والمقصود بابتغاء تاويله. ابتغاء حمله على ما لا يحتمله النص، بل هو تحميل وتحكممن المؤول، بغرض الفتنة والتحريف.

التاويل في المصطلح: ولاهمية التاويل واثره في الفكر الاسلامي فقد حظي بالدراسةوالمناقشة من

قبل العلماء المختصين بعلوم القرآن فاهتموا به، ودققوا في تعريفه،ودراسة نتائجه، فعرف بعضهم التاويل بالتفسير ولم يفرق بينهما، في حين راىآخرون ان من لم يميز بين التفسير والتاويل لم يعرف من علوم القرآن شيئا، وليس هذافحسب، بل واختلفت عباراتهم في تعريف التاويل، وتحديد حقيقته.

وفيما يلي نستعرض بعضا من تلك التعاريف:

قال السيوطي (٩١١ هـ): (هو ما ترك ظاهره لدليل)(١٨٤).

ثم قال: (والتاويل انما يقبل اذا قام عليه دليل، وكان قريبا)(١٨٥).

اما البعيد فلا، كتاويل الحنفية قوله تعالى: (فاطعام ستين مسكينا) ستين مدا على انيقدر مضاف... ووجه البعد: اعتبار مالم يذكر، وهو المضاف، والغاء ما ذكر وهوالعدد...)(١٨٦).

وعرف الزركشي (٧٩٤ هـ): التاويل بقوله: (...فكان التاويل صرف الاية الى ما تحتملهمن المعاني)(١٨٧).

ثم قال: (وقيل: اصله من الايالة، وهي السياسة، فكان المؤول للكلام يسوي الكلام،ويضع المعنى في موضعه)(١٨٨).

وعرفه الطبرسي (القرن السادس) بقوله: (والتاويل رد احد المحتملين الى ما يطابقالظاهر) ثم قال: (وقيل: التفسير كشف المغطى، والتاويل انتهاء الشيء ومصيره، ومايؤول اليه امره، والمعنى

ماخوذ من قولهم عنيت فلانا، اي قصدته، فكان المراد منقولهم عنى به كذا، قصد بالكلام كذا(١٨٩).

وعرفه ابو طالب التغلبي بقوله: (والتاويل تفسير باطن اللفظ، ماخوذ من الاول، وهوالرجوع لعاقبة الامر. فالتاويل اخبار عن حقيقة المراد...).

وعرفه الشهيد الصدر بقوله: (التاويل جاء في القرآن بمعنى مايؤول اليه الشيء، لابمعنى التفسير، وقد استخدم بهذا المعنى للدلالة على تفسير المعنى، لا تفسير اللفظ،اي على تجسيد المعنى العام في صورة ذهنية معينة)(١٩٠).

وعرفه العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان بقوله: (انه الحقيقةالواقعية التي تستند اليها البيانات القرآنية، من حكم او موعظة، او حكمة وانه موجودلجميع الايات القرآنية، محكمها ومتشابه ها، وانه ليس من قبيل المفاهيم المدلولعليها بالالفاظ، بل هي من الامور العينية المتعالية من ان يحيط بها شبكات الالفاظ،وانما قيدها اللّه سبحانه بقيد الالفاظ لتقريبها من اذهاننا بعض التقريب. فهي كالامثالتضرب ليقرب بها المقاصد ، وتوضح بحسب ما يناسب فهم السامع، كما قال تعالى: (...والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وانه في ام الكتاب لدينا لعليحكيم)(١٩١).

ثم عرفه بقوله: (... ان المراد بتاويل الاية ليس مفهوما من المفاهيم تدل عليه الاية،سواء كان مخالفا لظاهرها او موافقا، بل هو من قبيل الامور الخارجية، ولا كل امرخارجي حتى يكون

المصداق الخارجي للخبر تاويلا له، بل امر خارجي

مخصوص نسبته الى الكلام نسبة الممثل الى المثل، والباطن الى الظاهر)(١٩٢).

ومن قراءة التعاريف الاخيرة الثلاثة يتضح لنا ان التاويل هوعبارة عن بيان الحقيقةالخارجية للشيء، كبيان المقصود بقوله تعالى:(وسع كرسيه السماوات والارض) بان الكرسي، كناية عن الملك والسلطان،فالحقيقة الخارجية للكرسي في هذه الاية هي الملك والسلطان، وليست هي الكرسيالمادي المالوف في عالم الانسان، فهو تعبير مجاز، وليس تعبير حقيقة.

منهج التفسير في مدرسة اهل البيت: لقد تعددت مناهج تفسير وفهم القرآن، وظهرت مدارس وآراء ومذاهب مختلفة فيالصف الاسلامي، كالمنهج الظاهري، والمنهج الباطني، والمنهج الاثري والتفسيراللغوي، والتفسير بالراي والمنهج المتعدد العناصر... الخ.

وكان لهذا التعدد اثره ونتائجه السلبية المختلفة الناتجة عن الاتجاهات غير السليمة فيمعظم تلك المناهج، ومن ابرز ما نتج عن ذلك من آثار سلبية، هو الجمود والتحجرالفكري، والتوقف في فهم القرآن، وتجميد دور العقل والنمو الفكري تارة، وتحميلالقرآن آراء وقناعات المفسر تارة اخرى، والشطط في فهم القرآن تارة ثالثة.

ولقد برز منهج علماء اهل البيت(ع) في فهم القرآن منهجا مستقلا متوازنا يقوم علىالاسس العلمية التي حددها القرآن ذاته والمؤهلة لفهم القرآن، وتطوير العقل البشريوتنميته، وتحقيق

الاصالة والنقاء اذا ما تفاعلت جميعها في عمل المفسر لتوصل الىفهم القرآن فهما سليما، اذا ما استكمل المفسر استيعاب تلك العناصر، وتوفرت لهمادتها. وابعد عمله عن الذاتية والقصور الذاتي.

ومع كل ذلك فان النتائج التي يتوصل اليها المفسر المجتهد تبقى اجتهادا قابلا للنقدوالتمحيص، ومحاولة لفهم المحتوى القرآني بالقدر المتيسر للمفسر.

وللتعريف بتلك العناصر فلنرجع الى كل من الشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي، وهمامن اعلام الفكر الامامي، ومن اعاظم المفسرين (فالتبيان) للشيخ الطوسي و (مجمعالبيان) للشيخ الطبرسي يعتبران من اعظم مراجع التفسير عند الشيعة الامامية، ومامتازا به من عمق ودقة ونقاء، بل ويعتبر مجمع البيان مدرسة في علوم القرآن واللغة،ومرجعا فريدا في هذا المجال للمسلمين جميعا.

فلنقرا اذا ما كتبا في منهج التفسير المعتمد في مدرسة اهل البيت(ع).

ومما يزيد هذا المنهج وضوحا، هو تطبيقهما لهذا المنهج، واشادة تفسيريهما علىاساسه.

قال الشيخ الطوسي ملخصا منهج التفسير الامامي بقوله:

(والذي نقول به: ان معانيالقرآن على اربعة اقسام:

احدها: ما اختص اللّه تعالى بالعلم به، فلا يجوز لاحد تكلف القول فيه، ولا تعاطيمعرفته، وذلك

مثل قوله تعالى:

(يسالونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عندربي لا يجليها لوقتها الا هو...)(١٩٣)

ومثل قوله تعالى: (ان اللّه عنده علمالساعة...)(١٩٤) الى آخرها. فتعاطي معرفة ما اختص اللّه تعالى به خطا.

وثانيها: ما كان ظاهره مطابقا لمعناه، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها، عرف معناها، مثل قوله تعالى: (...ولا تقتلوا النفس التي حرم اللّه الا بالحق...)(١٩٥).

ومثل قوله تعالى: (قل هو اللّه احد)(١٩٦) وغير ذلك.

وثالثها: ما هو مجمل لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلا. مثل قوله تعالى: (اقيموالصلاة وآتوا الزكاة...)(١٩٧) ومثل قوله: (وللّه على الناس حج البيت من استطاعاليه سبيلا...)(١٩٨) وقوله: (وآتوا حقه يوم حصاده...)(١٩٩) وقوله: (والذينفي اموالهم حق معلوم)(٢٠٠) وما اشبه ذلكفان تفصيل اعداد الصلاة وعدد ركعاتها،وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن استخراجه الا ببيان النبي(ص) ووحي من جهة اللّه تعالى. فتكلف القول في ذلك خطا ممنوع منه،يمكن ان تكون الاخبار متناولة له.

ورابعها: ما كان اللفظ مشتركا بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن ان يكون كل واحدمنهما مرادا. فانه لا ينبغي ان يقدم احد به فيقول: ان مراد اللّه فيه بعض ما يحتمل الا بقول نبي او امام

معصوم بل ينبغي ان يقول: ان الظاهر يحتمل لامور، وكل واحد يجوزان يكون مرادا على التفصيل. واللّه اعلم بما اراد.

ومتى كان اللفظ مشتركا بين شيئين، او ما زاد عليهما، ودل الدليل على انه لا يجوز انيريد الا وجها واحدا، جاز ان يقال: انه هو المراد.

ومتى قسمنا هذه الاقسام، نكون قد قبلنا هذه الاخبار، ولم نردها على وجه يوحشنقلتها والمتمسكين بها، ولا منعنا بذلك من الكلام في تاويل الاي جملة.

ولا ينبغي لاحد ان ينظر في تفسير آية لا ينبئ ظاهرها عن المراد تفصيلا، او يقلد احدامن المفسرين، الا ان يكون التاويل مجمعا عليه، فيجب اتباعه لمكان الاجماع، لان منالمفسرين من حمدت طرائقه، ومدحت مذاهبه، كابن عباس، والحسن، وقتادةومجاهد وغيرهم. ومنهم من ذمت مذاهبه، كابي صالح والسدي والكلبي وغيرهم.هذا في الطبقة الاولى.

واما المتاخرون فكل واحد منهم نصر مذهبه، وتاول على مايطابق اصله، ولا يجوزلاحد ان يقلد احدا منهم، بل ينبغي ان يرجع الى الادلة الصحيحة: اما العقلية، اوالشرعية، من اجماع عليه، او نقل متواتر به، عمن يجب اتباع قوله، ولا يقبل في ذلكخبر واحد خاصة اذا كان مما طريقه العلم، ومتى كان التاويل يحتاج الى شاهد منالللغة، فلا يقبل من الشاهد الا ما كان معلوما بين اهل اللغة شائعا بينهم.واما طريقة الاحاد من الروايات الشاردة، والالفاظ النادرة، فانهلايقطع بذلك، ولا

يجعل شاهدا على كتاب اللّه، وينبغي ان يتوقف فيه ويذكر مايحتمله، ولا يقطع على المراد منه بعينه، فانه متى قطعبالمراد كان مخطئا، وان اصاب الحق، كما روي عن النبي(ص) لانهقال تخمينا وحدسا، ولم يصدر ذلك عن حجة قاطعة. وذلك باطلبالاتفاق)(٢٠١).

وقال الشيخ الطبرسي ملخصا المنهج الامامي ومتوافقا مع الشيخ الطوسي، فيما حددهمن العناصر المعتمدة في التفسير: (واعلم ان الخبر قد صح عن النبي(ص) وعن الائمة القائمين مقامه(ع) ان تفسيرالقرآن لا يجوز الا بالاثر الصحيح، والنص الصريح، وروت العامة ايضا عنالنبي(ص) انه قال من فسر القرآن برايه فاصاب الحق فقد اخطا، قالوا: وكره جماعةمن التابعين القولفي القرآن بالراي، كسعيد بن المسيب، وعبيدة السلماني، ونافع وسالم بن عبد اللّه،وغيرهم، والقول في ذلك ان اللّه سبحانه ندب الى الاستنباط واوضح السبيل اليه،ومدح اقواما عليه فقال: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم). وذم آخرين على تركتدبره، والاضراب عن التفكر فيه، فقال: (افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها).وذكر ان القرآن منزل بلسان العرب فقال: (انا جعلناه قرآنا عربيا)، وقالالنبي(ص) (اذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب اللّه، فما وافقه فاقبلوه، وماخالفه فاضربوا به عرض الحائط) فبين ان الكتاب حجة، ومعروض عليه، ، وكيفيمكن العرض عليه، وهو غير مفهوم المعنى. فهذا وامثاله يدل على ان الخبر متروكالظاهر فيكون معناه ان صح ان من حمل القرآن على رايه، ولم يعمل بشواهد الفاظه،فاصاب الحق، فقد اخطا الدليل. وقد روي عن النبي(ص) انه قال: (القرآن ذلول، ذووجوه، فاحملوه على احسن

الوجوه) وروي عن عبد اللّه بن عباس انه قسم وجوهالتفسير على اربعة اقسام: تفسير لا يعذر احد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب بكلامها،وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعرفه الا اللّه عزوجل، فاما الذي لا يعذر احد بجهالتهفهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن، وجمل دلائل التوحيد، واما الذي تعرفهالعرب بلسانها، فهو حقائق اللغة، وموضوع كلامهم، واما الذي يعلمه العلماء فهوتاويل المتشابه، وفروع الاحكام. واما الذي لايعلمه الا اللّه، فهو ما يجري مجرىالغيوب، وقيام الساعة، واقول ان الاعراب اجل علوم القرآن فان اليه يفتقر كل بيان،وهو الذي يفتح من الالفاظ الاغلاق، ويستخرج من فحواها الاعلاق. اذ الاغراضكامنة فيها، فيكون هو المثير لها، والباحث عنها، والمشير اليها، وهو معيار الكلام الذيلايبين نقصانه ورجحانه حتى يعرض عليه، ومقياسه الذي لا يميز بين سقيمهومستقيمه، حتى يرجع اليه، وقد روي عن النبي(ص) انه قال اعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه. واذا كان ظاهر القرآن طبقا لمعناه، فكل من عرف العربية والاعراب عرففحواه ويعلم مراد اللّه به قطعا.

هذا اذا كان اللفظ غير مجمل يحتاج الى بيان، ولا محتمل لمعنيين او معان، وذلك مثلقوله: (ولا تقتلوا النفس التي حرم اللّه الا بالحق) وقوله: (والهكم اله واحد) وقوله:(ولا يظلم ربك احدا) واشباه ذلك.

واما ما كان مجملا لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلا، مثل قوله سبحانه: (اقيموالصلاة وآتوا

الزكاة) (وآتوا حقه يوم حصاده) فانه يحتاج فيه الى بيان النبي(ص) بوحي من اللّه سبحانه اليه فيبين تفصيل اعيان الصلوات، واعداد الركعات، ومقاديرالنصب في الزكاة، وامثالها كثيرة الشروع في بيان ذلك من غير نص وتوقيف ممنوعمنه. ويمكن ان يكون الخبر الذي تقدم محمولا عليه. واما ما كان محتملا لامور كثيرة، او لامرين، فلا يجوز ان يكون الجميع مرادا بل قد دلالدليل على انه لا يجوز ان يكون المراد به الا وجها واحدا، فهو من باب المتشابه لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد فيحمل علىالوجه الذي يوافق الدليل، وجاز ان يقال انه هو المراد وان كان اللفظ مشتركا بينمعنيين، او اكثر، ويمكن ان يكون كل واحد من ذلك مرادا فلا ينبغي ان يقدم عليهبجسارة، فيقال ان المراد به كذا قطعا، الا بقول نبي او امام مقطوع على صدقه، بل يجوزان يكون كل واحد مرادا على التفصيل، ولا يقطع عليه، ولا يقلد احد من المفسرين فيهالا ان يكون التاويل مجمعا عليه، فيجب اتباعه لانعقاد الاجماع عليه، فهذه الجملةالتي لخصتها اصل يجب ان يرجع اليه، ويعول عليه، ويعتبر به وجوه التفسير، ومااختلف فيه العلماء من نزول القرآن والمعاني والاحكام.

وقد بين السيد الخوئي منهجه في التفسير قائلا: (ولابد للمفسر من ان يتبع الظواهرالتي يفهمها العربي الصحيح فقد بينا لك حجية الظواهر او يتبع ما حكم به العقلالفطري الصحيح، فانه حجة من الداخل، كما ان النبي حجة من الخارج، او يتبع ما ثبتعن المعصومين(ع) فانهم المراجع في الدين، والذين اوصى النبي (ص) بوجوب التمسك بهم فقال: «اني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه

وعترتي اهل بيتي، ما ان تمسكتم‌بهما لن تضلوا بعدي ابدا»(٢٠٢).

الخلاصة:

ومن قراءة وتحليل ما ثبته الشيخ الطوسي والطبرسي والسيد ابو القاسم الخوئيوغيرهم نكتشف بوضوح ان منهج التفسير في مدرسة اهل البيت(ع) يعتمد العناصرالاتية جميعها لاكتشاف مراد اللّه تعالى من كتابه، وفهم معانيه ودلالاته ومعارفه،فهي:

١- التفسير بالاثر الوارد عن النبي(ص) او ائمة اهل البيت(ع) وان ما اثر عنهم(ع) منتفسير وبيان قرآني، هو المرجع عند الاختلاف في فهم القرآن. وان هناك معان قرآنية،لايمكن تحصيلها الا عن طريق النبي(ص) او الامام(ع).

٢- التفسير بالاعتماد على اللغة: فان القرآن نزل ببيان عربي يفهمه من عرف العربيةمعرفة بمستوى لغة العصر الذي نزل فيه الوحي.

واعتماد العنصر اللغوي يمكن المفسر من استخراج المعاني القرآنية التي لا اجمالفيها، ولا يحتمل معنيين او عدة معان كما ذكر الطبرسي ذلك وهو ما صرح به ابنعباس بقوله:

(وتفسير تعرفه العرب بكلامهما).

٣- التفسير بالاعتماد على العقل: واعتماد العقل في التفسير ملتزما بما اثر عن النبي،وبعدم تجاوز البيان اللغوي الدال على المراد لهو منهج علمي يساهم باثراء العلم،ومعرفة وفتح آفاق الفهم والاستنباط من خزين معارف القرآن ما تحتاجه البشرية علىامتداد عصورها، وان افضل اداة

لاكتشاف هذا الخزين الفريد هو العقل الملتزم.ويؤيده ماستدل به العلماء من قوله تعالى: (افلا يتدبرون القرآن ام على قلوباقفالها).

وبعد ما مر من تعريف بالتفسير نستطيع ان نلخص الاعمال التفسيرية التي يمارسهاالمفسر بالاتي:

١- تفسير الالفاظ القرآنية الغريبة: مثل قوله تعالى: (وجعلواالقرآن عضين) وقولهتعالى: (كاسا دهاقا) وقوله تعالى: (جاءت الصاخة) فتفسير المفردات: «عضين، ودهاقا، والصاخة» وفهم معناها في اللغة وسيلة لفهم معنى الاية واكتشافمضمونها.

٢ -تفسير معنى الاية المفردة: وهو المرحلة الثانية من التفسير والقادرة على اعطاءالمعنى المحدود بحدود الاية.

٣- التفسير الموضوعي: وهو المنهج الذي يقوم على اساس دراسة الايات ذات الصلةبموضوع جميعها، كوحدة موضوعية، يكمل بعضها البعض الاخر، فمثلا عندما يرادفهم قضية المال، او الحكم في القرآن، او مسالة الطلاق، او حقوق المراة، او التوحيد،تقوم الدراسة على اساس تجميع الايات ذات الصلة بالموضوع ودراستها كوحدةموضوعية متكاملة لاجل الخروج باحكام القرآن ومفاهيمه التي تعطينا صورة كاملةعن ذلك الموضوع.

فالايات عندما تجمع وتدرس ضمن وحدة موضوعية، نستطيع ان نفهم الرؤيةالقرآنية، والنظرية الاسلامية المتكاملة في ذلك الموضوع.

تفسير القرآن بالقرآن وكما تفسر السنة القرآن الكريم، فان القرآن يفسر بعضه بعضا، واللجوء الى بعضالايات في فهم وتفسير آيات اخرى هو منهج علمي سليم، وقد وضع الامام علي(ع)هذا المنهج بقوله: «القرآن ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض»(٢٠٣).

ومن امثلة تفسير القرآن بالقرآن هو تفسير الامام علي(ع) لقوله تعالى: «وحملهوفصاله ثلاثون شهرا» فسرها بجمعها مع قوله تعالى: (والوالدات يرضعن اولادهنحولين كاملين)، فاستخرج من القرآن من الاية الاولى والثانية ان اقل مدة للحمل هيستة اشهر.

وان الرجوع الى آيات من القرآن لتفسير آيات اخرى مبدا اساس من مبادئ صيانةالمعاني القرآنية، وحمايتها من التحريف

والتزييف، لاسيما في مجال العقيدة والفكر،فالايات المتحدثة عن صفات اللّه وافعاله وعلاقة فعل الانسان بفعل اللّه تعالى: كياتالهدى والضلال يفسر بعضها بعضا. فالاية الكريمة: (ليس كمثله شيء وهو السميعالبصير) اساس لتفسير الايات التي

حاول البعض ان يستفيد منها فكرة التشبيهوالتجسيم، كقوله تعالى: (يد اللّه فوق ايديهم) وقوله سبحانه: (الرحمن على

العرشاستوى) فمن دلالة: (ليس كمثله شيء) نفهم ان معنى (يد اللّه) ومعنى (الاستواء)ليس معنى تجسيديا، فاللّه منزه عن مشابهة الخلق.

وبالاعتماد على الايات الكريمة: (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا)(٢٠٤).

او قوله: (وهديناه النجدين) وقوله: (لا يكلف اللّه نفسا الا وسعها لها ما كسبتوعليها ما اكتسبت)(٢٠٥).

او قوله: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان اللّه سريعالحساب)(٢٠٦).

او قوله: (ان تكفروا فان اللّه غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكمولا تزر وازرة وزر اخرى...)(٢٠٧).

بالاعتماد على احدى او اكثر هذه الايات نستطيع ان نفهم معنى قوله (فان اللّه يضل منيشاء ويهدي من يشاء)(٢٠٨).

وامثالها من الايات التي فسرت من قبل البعض تفسيرا خاطئا، فسرت باسناد الاضلالالى اللّه سبحانه، بشكل جبري نافية لارادة الانسان واختياره لفعله، وهو ما يتناقضوعدل اللّه سبحانه، فهذه الايات وكثير امثالها تصف الانسان بانه حر مختار، وهويجازى بما كسبت يداه، وان اللّه تعالى لا يرضى لعباده الكفر، لذا اءولت آيات الهدىوالضلال تاويلا سليما يتناسق والايات الاخرى ذات العلاقة بالموضوع.

وكتفسير قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم × صراط الذين انعمت عليهم...)بقوله تعالى: (ومن يطع اللّه والرسول فاولئك مع الذين انعم اللّه عليهم من النبيينوالصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا)(٢٠٩).

فان الاية الثانية تبين المقصود بقوله تعالى: (صراط الذين انعمت عليهم).

وقد ذكر السيوطي هذا المنهج بقوله: (من اراد تفسير الكتاب العزيز طلبه اولا منالقرآن، فان اعياه ذلك طلبه من السنة، فانها شارحة للقرآن وموضحة له)(٢١٠).

التفسير وخبر الاحاد

خبر الواحد:

ويراد به الخبر الذي لم يحصل منه القطع بثبوت مؤداه(٢١١).

مما اجمع العلماء عليه هو ان مؤدى خبر الاحاد الذي لم يحتف بالقرائن الموجبةللعلم بصدقه او الموجبة للاطمئنان اليه هو الظن، ثم اختلفوا في اعتبار الخبر الذي لايحتف بالقرائن الموجبة للعلم بصدقه او الاطمئنان اليه. فذهب فريق الى وجوبالعمل بخبر الاحاد هذا، ويقود هذه المدرسة الشيخ الطوسي(رحمهاللّه)، وهو مااستقر عليه العمل عند علماء الشيعة الامامية، مرجعين حجيته الى ورود ما يفيد القطعبوجوب العمل به من الشارع، واستدلوا لذلك بادلة من الكتاب والسنة وغيرهما.

قال الشيخ الطوسي(رحمهاللّه) معبرا عن هذا الراي: (والذي اذهب اليه ان خبرالواحد لا يوجب العلم، وان كان يجوز ان ترد العبادة بالعمل به عقلا، وقد ورد جوازالعمل به في الشرع، الا ان ذلك موقوف على طريق مخصوص، وهو ما يرويه من كانمن الطائفة المحقة، ويختص بروايته، ويكون على صفة يجوز معها قبول خبره منالعدالة وغيرها)(٢١٢).

ثم يوضح موجب حجية خبر الواحد فيقول: (من عمل بخبر الواحد فانما يعمل به اذادل على

وجوب العمل به، اما من الكتاب او من السنة والاجماع، فلا يكون قد عمل بغير علم)(٢١٣).

ويؤيد ذلك فريق من اعاظم العلماء امثال العلا مة الحلي الذي صرح بذلك بقوله: (خبرالواحد هو ما يفيد الظن، وان تعدد المخبر، وهو حجة في الشرع خلافا للسيدالمرتضى ولجماعة)(٢١٤).

اما المدرسة الثانية فيقودها السيد المرتضى، ويؤيده ابن زهرة والطبرسي وابن ادريسوغيرهم، وهي المدرسة التي انكرت

حجية خبر الواحد، وبالتالي اسقطت جوازالاعتماد عليه، والرجوع اليه.

قال السيد المرتضى(رحمهاللّه): (لابد في الاحكام الشرعية من طريق يوصل الىالعلم...) الى ان قال: (ولذلك ابطلنا العمل في الشريعة باخبار الاحاد، لانها لا توجبعلما ولا عملا، واوجبنا ان يكون العمل تابعا للعلم، لان خبر الواحد اذا كان عدلا فغاية ما يقتضيه الظن بصدقه، ومن ظننت صدقه يجوز ان يكون كاذبا)(٢١٥).

وهكذا تتشخص امامنا المعركة العلمية حول خبر الاحاد غير المحفوف بالقرائن،فالكل مجمعون على انه يفيد الظن.

غير ان فريقا من العلماء آمن بوجوب العمل بخبر الاحاد هذا لورود الادلة القطعيةعلى العمل به.

وهذا يعني جواز الاعتماد على خبر الاحاد في التفسير بعد الوثوقبصدق راويه.

وينبغي ان نشير هنا الى ان خبر الاحاد اذا تعارض مع الكتاب العزيز سقطت قيمته، لانهغير مشمول بدليل حجية خبر الاحاد. فالكتاب اساس لاثبات صحة الروايةوعدمها. قال الفقيه السيد

محمد باقر الصدر(رحمه‌اللّه): «ان هذه روايات معارضة للكتاب‌الكريم الدال على انه نزل تبيانا لكل شيء وهدى وبلاغا، والمخالف للكتاب من اخبارالاحاد لايشمله دليل حجية خبر الواحد، كما اشرنا سابقا»(٢١٦).

وقد وردت روايات عديدة تامر بعرض الروايات على كتاب اللّه للتاكد من صحتها،نذكر منها:

ما جاء عن الرسول(ص): «ايها الناس ماجاءكم عني يوافق كتاب اللّه فانا قلته، وماجاءكم يخالف كتاب اللّه فلم اقله»(٢١٧).

وقال(ص): «ان على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب اللّه فخذوه وما خالف كتاب اللّه فدعوه»(٢١٨).

ولعل من موارد التفسير هو تخصيص عموم القرآن وتقييد مطلقه، بخبر الاحاد، وهوليس من التعارض مع القرآن، لامكان الجمع العرفي بين الدلالتين بين دلالة الخبر والظاهر القرآني كما افاد العلماء بذلك.

التفسير بين الذاتية والموضوعية ان مسالة التعامل مع النص القرآني، واكتشاف ما يختزن ويشع به من معنى ومراد،تفسيرا او تاويلا او اظهارا، هي من اهم مسؤوليات الجهد العلمي الذي دعا اليه القرآنتحت عنوان التفكر والتدبر، وفهم معنى القرآن، او فقهه او تاويله، او استنباط محتواه.

وبما ان القرآن مصدر بقاء الشريعة والقانون الاسلامي، ومقياس الضبط وتنظيمالتفكير، وضع

العلماء القواعد الاساسية،

والمنهج العلمي المنظم لاستكشاف محتوىالخطاب القرآني.

وان من اخطر ما يهدد التعامل مع القرآن وفهم معناه، هو الذاتية، والمسلمات القبليةالتي يحملها المفسر والباحث في القرآن، وبالتالي يعمل هؤلاء المتعاملون مع القرآنعلى فرض آرائهم ومعتقداتهم وتحميلها على القرآن الكريم، بل ترى المفسروصاحب الراي الكلامي او الفلسفي او غيرهما، يعرض رايه ونظريته في بعضالاحيان ثم ياتي بالاية ليسند بها ما يعتقده، او يفكر به، او ما يريد اثباته، وليس هذاتفسيرا، ولا رجوعا للقرآن، ذلك لان التفسير هو اكتشاف ما في آي القرآن، لذا جرتهذه الاتجاهات الى العبث بالمعنى القرآني والتحريف لمحتواه. ذلك لانهاخضاعالمحتوى القرآني للاتجاهات الذاتية.

وفي البيان النبوي الشريف توضيح كاف للفصل بين الذاتية والموضوعية في التفسير.قال(ص): «تعلموا القرآن، واقراوه، واعلموا انه كائن لكم ذكرا وذخرا، وكائن عليكموزرا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم، فانه من تبع القرآن نهج به على رياض الجنة، ومنتبعه القرآن زج به في قفاه حتى يقذفه في جهنم»(٢١٩).

وقال(ص): «انما اتخوف على امتي من بعدي ثلاث ضلال: ان يتاولوا القرآن على غيرتاويله، ويتبعوا زلة العالم... فاما القرآن فاعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، واما العالمفانتظروا فئته، ولا

تتبعوا زلته...»(٢٢٠)

ويؤكد الباحثون ان ما ورد عن ائمة اهل البيت(ع) من روايات ان اناسا حرفوا القرآن، انما كانوا يقصدون بذلك تحريف معناه، وليس تحريف كلماته وحروفه من الزيادةوالنقصان، كما تصور البعض.

وهذا التحريف للمعنى القرآني هو الذي تحدث عنه القرآن بقوله: (يحرفون الكلم عنمواضعه).

قال الشيخالطوسي في تفسير هذهالاية(يعني يغيرونها عن تاويلها)(٢٢١).

ان المشكلة الكبرى في التفسير، او الاخذ من القرآن، تكمن في خطا المفسر، اواخضاع الاية لرايه، وكم هو دقيق تشخيص الامام علي(ع) لهذه الظاهرة عندما قال: «يعطف الهوى على الهدى اذا عطفوا الهدى على الهوى، ويعطف الراي على القرآن اذاعطفوا القرآن على الراي»(٢٢٢)، وتنتشر هذه الظاهرة في الفكر العقيدي بشكلاوضح. اذ عبثت الاتجاهات الباطنية، او آراء بعض الفلاسفة والفرق الكلامية فيالدلالات القرآنية.

ومن المفيد ان نذكر عينات من التفسير الذي يتحكم فيها راي المفسر بدلالة الاية.. منتلك العينات تفسير ابن عربي الباطني لقوله تعالى: (...واخذهم الربا وقد نهواعنه).

قال: (واخذهم ربا فضول العلوم، كالخلاف والجدل واللذات البدنية، والحظوظ التينهوا عنها...)(٢٢٣).

وفسر قوله تعالى: (رب اجعل هذا البلد آمنا...) فسره بقوله: (اي، بلد البدن آمنا منغلبات صفات النفس، وتنازع القوىوتجاذب الاهواء)(٢٢٤).

وكتب الشيخ محمد الغزالي ناقدا للذاتية المفسرة يقول: (كنت انظر احيانا الى طريقتنا في فهم القرآن، فكنت اجد انها طريقة تستحق التامل،بمعنى: انه لكي نقول: ان العمل الذي نؤديه هو من صنع اللّه، استدللنا بالقرآن (واللّهخلقكم وما تعملون) وانتزعنا هذه الاية من السياق كله لكي تدل على مذهب اهلالسنة: ان العمل مخلوق للّه، اونسينا ان هذا الكلام لو صح، ما كان عبدة الاوثانمسؤولين، لانهم اذا كانوا مخلوقين للّه، وشركهم ووثنيتهم مخلوقة للّه، فما عليهم منذنب، لكن نحن اخذنا ظاهر الاية وقطعناها من سياقها، من قبل ومن بعد، وجعلناهادليلا لراي باطل.. انها آفة التجزيء)(٢٢٥).

وكتب الفقيه المفكر الاسلامي الشهيد السيد محمد باقر الصدر نقدا رافضا للتفسيرالباطني الذي انكر حجية الظهور لتمرير آراء خاصة. قال(رحمهاللّه): «ذهب جماعة من العلماء الى استثناء ظواهر الكتاب الكريم من الحجية، وقالوا بانه لايجوز العملفيما يتعلق بالقرآن العزيز الا بما كان نصا في المعنى، اومفسرا تفسيرا محددا من قبلالنبي(ص) او المعصومين من آله عليهم الصلاة والسلام»(٢٢٦).

ثم رد هذا الراي الذي اعتمد روايات ضعيفة السند بل مكذوبة، كما قال بان رواتها فيالغالب من ذوي الاتجاهات الباطنية المنحرفة على مايظهر من تراجمهم(٢٢٧).

ثم قال(رحمه اللّه)، وثانيا: «ان هذه روايات معارضة للكتاب الكريم الدال على انهنزل تبيانا لكل شيء وهدى وبلاغا، والمخالف للكتاب من اخبار الاحاد لايشمله دليلحجية خبر الواحد، كما اشرنا سابقا»(٢٢٨).

كتفسيرهم لقوله تعالى: (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عملالشيطان فاجتنبوه)(٢٢٩).

بان الخمر والميسر والانصاب والازلام هي اسماء لاشخاص يدعو القرآن لاجتنابهم،وليست هي الحقائق الدال عليها ظاهر اللفظ.

وتعريف التفسير بدقته العلمية وبانه: (الكشف عن مراد اللّه تعالى من كتابه العزيز).

يؤكد لنا ان تدخل الذاتية يحول دون الكشف عن مراد اللّه تعالى، وبالتالي ليس ماتنتجه الذاتية هو تفسير لكتاب اللّه، ولا كشف عن محتوى الاية، بل هو راي المفسر، اوالباحث، او المستدل، وتحميله لرايه على الاية.

وحين تقرا التفاسير والاراء العقيدية والفقهية والفلسفية والاخلاقية وغيرها نجدالمذهبية الذاتية ظاهرة واضحة في فهم القرآن وتفسيره حتى صار التفسير والاستدلالبالقرآن عند البعض هو استدلال على مايؤمن به، وكان القرآن انزل ليؤيد رايه واتجاههالمذهبي.

ان المنهج السليم في فهم القرآن واكتشاف محتواه. هو المنهج العلمي الذي يتعامل معالقرآن كما يتعامل الباحث في مجال الطب والفيزياء والكيمياء. انا وان كنا نميز بينالاكتشاف المختبري في مجال الابحاث المادية، وبين مجال الاكتشاف في العلومالانسانية من صعوبة استبعاد الذات استبعادا مطلقا، الا ان امام الباحث في القرآن منهجاعلميا للاكتشاف والاستنباط يحافظ على مساره في البحث الموضوعي، اذا ما استفادمن المبادئ العلمية من غير عصبية ولاانحياز.

اسباب النزول

اسباب النزول مصطلح من مصطلحات علوم القرآنوالدراسات القرآنية، ويعني:السبب الذي من اجله نزلت الاية لتتحدث عنه ولتعرفه، او تبين حكمه، او ظروفهوعناصره، فان آيات القرآن الكريم نزلت خلال ثلاثة وعشرين عاما، وكان نزولها

علىقسمين:

١ قسم نزل ابتداء من غير حدث في محيط الدعوة البشري، وهو معظم آيات القرآنالكريم، وفي مختلف شؤون العقيدة والعبادة ونظام المجتمع... الخ.

٢ قسم من آياته المباركة نزل بسبب الحوادث والوقائع التي حدثت في محيطالدعوة، او بسبب سؤال من بعض الافراد، كقوله تعالى: (قل هواللّه احد× اللّه الصمد× لم يلد × ولم يولد × ولم

يكن له كفوا احد)، فسبب نزولها كما ورد في الكافي باسنادهعن محمد بن مسلم عن ابي عبد اللّه(ع) قال: «ان اليهود سالوا رسول اللّه(ص) فقالوا:انسب لنا ربك فلبث ثلاثا لايجيبهم، ثم نزلت (قل هو اللّه احد) الى آخرها»(٢٣٠).

وكقوله تعالى: (قد سمع اللّه قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى اللّه واللّه يسمع تحاوركما ان اللّه سميع بصير)(٢٣١) وسبب نزولها كما يذكر الواحدي النيسابوري (٢٣٢) انها نزلت في خويلة بنت ثعلبة عندما ظاهر منها زوجها اوس بنالصامت.

عن عروة قال: قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء اني لاسمع كلام خولةبنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها الى رسول اللّه(ص) وهي تقول: يارسول اللّه ابلى شبابي ونثرت له بطني حتى اذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني،اللهم اني اشكو اليك، قال: فما برحت حتى نزل جبرئيل(ع) بهذه الايات (قد سمع اللّهقول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى اللّه).

وكقوله تعالى: (ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء اللّه...)(٢٣٣) وسببنزولها كما اخرج الطبرسي في الرواية ان النبي(ص) سئل عن قصة اصحاب الكهف،وذي القرنين فقال: اخبركم عنه غدا، ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه اياما حتى شق‌عليه، فانزل اللّه تعالى هذه الاية يامره بالاستثناء بمشيئة اللّه تعالى(٢٣٤).

وفي تفسير العياشي(٢٣٥) عن عبد اللّه بن ميمون عن ابي عبد اللّه(ع) عن علي بن

ابيطالب(ع) قال: اذا حلف الرجل باللّه فله ثنياها الى اربعين يوما، وذلك ان قوما مناليهود سالوا النبي(ص) عن شيء فقال: ائتوني غدا ولم يستثن حتى اخبركم،فاحتبس عنه جبرئيل اربعين يوما ثم اتاه وقال: (ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء اللّه واذكر ربك اذا نسيت).

وقوله تعالى: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة اللّه...)(٢٣٦) وسببنزولها روى السدي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الاية في علي بن ابي طالب حينهرب النبي(ص) عن المشركين الى الغار ونام علي(ع) على فراش النبي(ص)ونزلت الاية بين مكة والمدينة وروي انه لما نام على فراشه قام جبرائيل عند راسهوميكائيل عند رجليه وجبرائيل ينادي بخ بخ، من مثلك يا ابن ابي طالب، يباهي اللّه بك الملائكة (٢٣٧).

وكية المباهلة: (فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونسائكم وانفسناوانفسكم...)(٢٣٨) وسبب نزولها: «قيل: نزلت الايات في وفد نجران العاقب والسيدومن معهما، قالوا لرسول اللّه: هل رايت ولدا من غير ذكر فنزل: (ان مثل عيسى عند اللّهكمثل آدم...) الايات. فقراها عليهم، عن ابن عباس وقتادة والحسن، فلما دعاهمرسول اللّه الى المباهلة استنظروه الى صبيحة غد من يومهم ذلك فلما رجعوا الىرحالهم قال لهم الاسقف: انظروا محمدا في غد فان غدا بولده واهله فاحذروا مباهلته،وان غدا باصحابه فباهلوه، فانه على غير شيء، فلما كان الغد جاء النبي(ص) آخذا بيدعلي بن ابي طالب(ع) والحسن والحسين(ع) بين يديه يمشيان وفاطمة(ع) تمشيخلفه، وخرج النصارى يقدمهم اسقفهم، فلما راى النبي(ص) قد اقبل بمن معه، سالعنهم، فقيل له: هذا

ابن عمه وزوج ابنته، واحب الخلق اليه، وهذان ابنا بنته من‌علي(ع) وهذه الجارية بنته فاطمة، اعز الناس عليه، واقربهم الى قلبه، وتقدم رسول‌اللّه(ص) فجثا على ركبتيه، قال ابو حارثة الاسقف: جثا واللّه كما جثا الانبياء للمباهلة، فكع(٢٣٩) ولم يقدم على المباهلة، فقال السيد: ادن يا ابا حارثة للمباهلة، فقال: لاانيلارى رجلا جريئا على المباهلة، وانا اخاف ان يكون صادقا، ولئن كان صادقا لم يحلواللّه علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء، فقال الاسقف: ياابا القاسم انا لانباهلك، ولكن نصالحك فصالحنا على ما ينهص به، فصالحهم رسول اللّه(ص) علىالفي حلة من حلل الاواقي، قسمة كل حلة اربعون درهما فما زاد ونقص فعلى حسابذلك، وعلى عارية ثلاثين درعا، وثلاثين رمحا، وثلاثين فرسا، ان كان باليمين كيد،ورسول اللّه ضامن حتى يؤديها، وكتب لهم بذلك كتابا.

وروي ان الاسقف قال لهم: اني لارى وجوها لو سالوا اللّه ان يزيل جبلا من مكانهلازاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا يبق على وجه الارض نصراني الى يوم القيامة.

وقال النبي: والذي نفسي بيده لو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم الواديعليهم نارا، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا كلهم. قالوا: فلما رجع وفدنجران لم يلبث السيد والعاقب الا يسيرا حتى رجعا الى النبي، واهدى العاقب له حلةوعصا وقدحا ونعلين واسلما(٢٤٠).

وكالايات التي نزلت تتحدث عن معارك بدر واحد وحمراء الاسد وحنين وغزوات اخرى.

ولاسباب النزول اثر كبير في تحديد معنى الاية وتفسيرها، ففهم سبب النزول يعينعلى فهم المعنى والمراد القرآني.

ومن الجدير ذكره هو ان آيات القرآن النازلة في حدث معين لايختص حكمها بذلكالحدث، ما لم يكن منحصرا به، بل يعتبر ذلك الحدث مثالا ومصداقا لها، لذلك جاءتالقاعدة التشريعية: (العبرة بعموم المعنى لابخصوص اللفظ) او: (خصوص المورد لايخصص الوارد).

ولقد ثبت الامام الباقر (ع) هذا المبدا عند تفسير قوله تعالى:

(ولكل قوم هاد).

فقد قال: «علي: الهادي، ومنا الهادي، فقلت (السائل) فانت جعلت فداك. قال:صدقت: ان القرآن حي لا يموت، والاية حية لاتموت، فلو كانت الاية اذا نزلت فيالاقوام وماتوا ماتت الاية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت فيالماضين»(٢٤١).

واوضح الامام الصادق(ع) بقوله لعمر بن يزيد لما ساله عن قوله تعالى: (والذينيصلون ما امر اللّه به ان يوصل): «هذه نزلت في رحم آل محمد(ص) وقد تكون فيقرابتك، فلا تكونن ممن يقول للشيء: انه في شيء واحد»(٢٤٢).

وروي عنه(ع) قوله: «ولو ان الاية اذا نزلت في قوم ثم مات اولئك ماتت الاية لما بقيمن القرآن شيء، ولكن القرآن يجري اوله على آخره، ما دامت السماوات والارض،ولكل قوم آية يتلوها منها من خير او شر»(٢٤٣).

وهكذا يتحدد هذا المبدا التشريعي والفكري العام تشخيصا لمراد اللّه تعالى من كتابه.وتوضيحا لخلود الشريعة، وامتداد احكامها.

وهكذا يتضح ان المفسر يحتاج الى معرفة سبب النزول ليفهم المعنى.

الجري والانطباق واسباب النزول:

ومن خلال قراءة ما ورد عن ائمة اهل البيت(ع) من ان الاية جارية باحكامهاومفاهيمها ما لم تكن خاصة في ذلك المورد ما دامت البشرية قائمة على هذه الارض،وان كانت قد نزلت بسبب حادثة معينة، فمن الضروري ان نميز عند التفسير بين سببالنزول وبين الجري والانطباق وبين علة التشريع.

فان سبب النزول: هو الحادثة التي نزلت الاية بسببها، وان الجري والانطباق يعني انحكم الاية منطبق على تلك الحادثة، او ذلك الشخص... الخ باعتباره احد المصاديق،وكثيرا ما وقع الخلط بين سبب النزول والجري والانطباق عند بعض المفسرين. وهذا الجري والانطباق يحصل في الايات ذات السبب والاخرى التي نزلت من غير سببللنزول.

وان علة التشريع: هي ما شرع الحكم من اجله: كعلة الاسكار في تحريم الخمر.

ومما ينبغي التعريف به في هذا المبحث هو ان اسباب النزول هي حوادث تاريخية،وان رواية هذه الحادثة وصل الينا عن طريق الرواة، ولابد لنا قبل قبول الخبر من التوثق من ناقله، لاسيما وان

يد التحريف قد امتدت الى هذه المسالة الخطيرة من تشخيصالحقائق، وبيان معاني القرآن، ومصاديق المعنى في المجتمع الانساني.

فمن امثلة ذلك الاية الكريمة: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة اللّه واللّهرؤوف بالعباد).

فانها نزلت في بيان فضل الامام علي(ع) لمبيته على فراش النبي ليلة الهجرة.

في حين جاءت روايات اخرى تذكر ان هذه الاية نزلت في صهيب او في غيره. ويؤكدالمحققون من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم انها نزلت في علي(ع). منذلك نفهم ان سبب صرفها عن السبب الحقيقي لنزولها (في علي(ع) هو ما دخل فيالروايات من دس وتحريف ووضع.

واذا لابد لنا من التحقيق في سبب النزول قبل قبول ما ينقل.

فان ذلك يساهم في فهمالمعنى الحقيقي وتشخيص المراد.

١٧٩- سورة الفرقان ، الاية ٣٣ .

١٨٠- سورة النساء ، الاية ٥٩ .

١٨١- سورة آل عمران ، الاية ٧ .

١٨٢- سورة الاعراف ، الاية ٥٣ .

١٨٣- المفردات في غريب القرآن : باب اول .

١٨٤- جلال الدين عبد الرحمن ابي بكر السيوطي ، التحبير في علم التفسير :ص١١٠ ، دار الكتب العلمية بيروت (ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ) .

١٨٥- جلال الدين عبد الرحمن ابي بكر السيوطي ، التحبير في علم التفسير :ص١١٠ ، دار الكتب العلمية بيروت .

١٨٦- جلال الدين عبد الرحمن ابي بكر السيوطي ، التحبير في علم التفسير :ص١١٠ . دار الكتب العلمية بيروت .

١٨٧- البرهان في علوم القرآن : ١٦٤/٢ .

١٨٨- البرهان : ١٦٤/٢ ، دار الكتب العلمية بيروت (ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ) .

١٨٩- مجمع البيان : ٨٠/١ ، دار المعرفة (ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ) .

١٩٠- محمد باقر الحكيم ، علوم القرآن : ص٧٨ .

١٩١- الميزان : ٤٩/٣ ، تفسير سورة آل عمران ، الاية ٧ .

١٩٢- المصدر السابق : ٤٦/٣ .

١٩٣- سورة الاعراف ، الاية ١٨٧ .

١٩٤- سورة لقمان ، الاية ٣٤ .

١٩٥- سورة الانعام ، الاية ١٥١ .

١٩٦- سورة التوحيد ، الاية ١ .

١٩٧- سورة البقرة ، الاية ٤٣ و ٨٣ و١١٠ . النساء ، آية ٧٦ . الحج ، آية ٧٨ . النور ،

آية٥٦ . المجادلة ، آية ٣١ . المزمل ، آية ٢ .

١٩٨- سورة آل عمران ، الاية ٩٧ .

١٩٩- سورة الانعام ، الاية ١٤١ .

٢٠٠- سورة المعارج ، الاية ٢٤ .

٢٠١- الطوسي ، التبيان : المقدمة ص٥ ٦ ٧ ، دار احياء التراث العربي آبيروت .

٢٠٢- البيان ، الخوئي : ص٤٢١ ٤٢٢ .

٢٠٣- نهج البلاغة : ص ١٩٢ د . صبحي الصالح .

٢٠٤- سورة الانسان ، الاية ٣ .

٢٠٥- سورة البقرة ، الاية ٢٨٦ .

٢٠٦- سورة غافر ، الاية ١٧ .

٢٠٧- سورة الزمر ، الاية ٧ .

٢٠٨- سورة فاطر ، الاية ٨ .

٢٠٩- سورة النساء ، الاية ٦٩ .

٢١٠- الاتقان ، تحقيق محمد ابو الفضل : ١٧٥/٢ . المكتبة العصرية بيروت .

٢١١- الشهيد السيد محمد باقر الصدر ، دروس في علم الاصول ، الحلقة الثانية : ١٨٧ .

٢١٢- عدة الاصول : ١/٢٩٠ ٢٩١ ، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر .

٢١٣- عدة الاصول : ١/٤٤ .

٢١٤- مبادئ الوصول الى علم الاصول ، تحقيق عبد الحسين البقال : ص٢٠٣ .

٢١٥- ابن ادريس ، مقدمة السرائر : ص٤٧ ، مؤسسة النشر الاسلامي قم (ط ٢ سنة١٤١٠ هـ) ،

٢١٦- دروس في علم اصول الفقه : ٢/٢١٩ .

٢١٧- الاصول من الكافي : ١/٦٩ ، دار الكتب الاسلامية طهران .

٢١٨- الاصول من الكافي : ١/٦٩ ، دار الكتب الاسلامية طهران .

٢١٩- الخصال : ١/٧٨ .

٢٢٠- مستدرك الوسائل : ١/٢٩٢ .

٢٢١- التبيان : سورة النساء ، الاية ٤٦ .

٢٢٢- نهج البلاغة : ص١٩٥ خ١٣٨ ، تحقيق د . صبحي الصالح .

٢٢٣- تفسير القرآن الكريم : ١/٢٩٧ ٢٩٨ تحقيق د . مصطفى غالب ط ٢ .

٢٢٤- تفسير القرآن الكريم : ج١ ص٦٥٧ .

٢٢٥- محمد الغزالي ، كيف نتعامل مع القرآن : ص٧٣ . دار الوفاء للنشر ط سنة ١٤١٢هـ .

٢٢٦- دروس في علم الاصول : الحلقة الثانية ، ص٢١٦ .

٢٢٧- دروس في علم الاصول : الحلقة الثانية ، ص٢١٩ .

٢٢٨- دروس في علم الاصول : الحلقة الثانية ، ص٢١٩ .

٢٢٩- سورة المائدة : الاية ٩٠ .

٢٣٠- الكليني : ٧١/١ ، منشورات المكتبة الاسلامية طهران ط سنة ١٣٨٨ هـ .واسباب النزول

للواحدي النيسابوري : ص٣٠٩ ٣١٠ .

٢٣١- سورة المجادلة ، الاية ١ .

٢٣٢- الواحدي النيسابوري : ص٢٧٣ .

٢٣٣- سورة الكهف ، الاية ٢٣ ٢٤ .

٢٣٤- مجمع البيان ، الطبرسي : تفسير سورة الكهف .

٢٣٥- نقلا عن تفسير الميزان للطباطبائي : ٣١١/١٣ .

٢٣٦- سورة البقرة ، الاية ٢٠٧ .

٢٣٧- مجمع البيان : ٥٣٥/٢ .

٢٣٨- سورة آل عمران ، الاية ٦١ .

٢٣٩- كع : ضعف وجبن .

٢٤٠- مجمع البيان : ٧٦٢/٢ ٧٦٣ .

٢٤١- نقلا عن السيد ابي القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص٣١ .

٢٤٢- نقلا عن السيد ابي القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص٣١ .

٢٤٣- المصدر السابق .

النسخ

المعنى اللغوي: (النسخ: ازالة شيء بشيء يتعقبه، كنسخ الشمس الظل، والظلالشمس، والشيب الشباب، فتارة يفهم منه الازالة، وتارة يفهم منه الاثبات، وتارة يفهممنه الامران)(٢٤٤).

وفي المصباح المنير: (... قال ابن فارس: وكل شيء خلف شيئا، فقد انتسخه. فيقال:انتسخت الشمس الظل، والشيب الشباب، اي ازاله...)(٢٤٥).

المعنى الاصطلاحي: ومن الواضح ان القرآن الكريم قد استعمل الالفاظ العربية بمعانخاصة، فصارت لها بعد ذلك الاستعمال

دلالات شرعية. تفهم عند الاطلاق، فتحولتبذلك الى اصطلاحات قرآنية محددة المعنى والدلالة.

ومن خلال دراسة العلماء المختصين للنسخ في القرآن يتضح لنا ان لهذا المصطلح اكثرمن استعمال. كما لهم آراء وتطبيقات متفاوتة نذكر ابرزها بعد ايراد التعريفالاصطلاحي للنسخ.

عرف الراغب الاصفهاني النسخ بقوله: «نسخ الكتاب: ازالة حكم بحكم يتعقبه. قالتعالى: (ما

ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها) قيل: معناه ما ننزل العمل بها، اونحذفها عن قلوب العباد، وقيل: معناه ما نوجده وننزله، من قولهم نسختالكتاب...»(٢٤٦).

وقال الفيومي:

«...والنسخ الشرعي: ازالة ما كان ثابتا بنص شرعي، ويكون في اللفظ والحكم. وفياحداهما سواء فعل، كما في اكثر الاحكام او لم يفعل، كنسخ ذبح اسماعيل بالفداء، لانالخليل(ع) امر بذبحه، ثم نسخ قبل وقوع الفعل...»(٢٤٧).

وقال الشيخ الطوسي: «واما الناسخ فهو كل دليل شرعي يدل على زوال مثل الحكمالثابت بالنص الاول في المستقبل، على وجه لولاه لكان ثابتا بالنص الاول مع تراخيهعنه»(٢٤٨).

وعرفه الشهيد الصدر بقوله: «والنسخ اذا اخذناه بمعناه الحقيقي وهو رفع الحكم بعدوضعه وتشريعه، بل واقع في الاحكام العرفية بلاكلام، وادعي وقوعه في الاحكامالشرعية من قبل بعض الاصوليين، فسوف لن يكون النسخ من باب التعارض والتنافيبين الدليلين بحسب الدلالة ومقام الاثبات، لان الدليل الناسخ حينئذ لايكون مكذبا للدليل المنسوخ، لا بلحاظ دلالته على اصل الحكم المنسوخ، ولا بلحاظ دلالته علىدوامه واستمراره، وانما يكون دالا على تبدل الحكم وتغيره ثبوتا بعد ان كان نظرالشرع على طبق المنسوخ حدوثا وبقاء حقيقة، فالنسخ في الشريعة على هذا الاساسوان كان من الاختلاف والتنافي في الحكم، وقد يكون له مبرراته من التدرج في مقام التقنين والتشريع، او غيره من المبررات، الا انه يكون تنافيا في عالم الثبوت، وليس منالتعارض

الذي هو التنافي في عالم الاثبات»(٢٤٩).

وعرف الفقيه الراحل السيد ابو القاسم الخوئي النسخ بقوله: «هو رفع امر ثابت فيالشريعة المقدسة بارتفاع امده وزمانه»(٢٥٠).

وعرفه بقوله ايضا: «المعروف بين العقلاء، من المسلمين وغيرهم، هو جواز النسخبالمعنى المتنازع فيه: رفع الحكم عن موضوعه في عالم التشريع والانشاء»(٢٥١).

ومن خلال التعريفات الانفة الذكر يتضح لنا ان النسخ حاصل في الشريعة الاسلامية،كما هو واقع في الشرائع الالهية الاخرى، قد فعله المشرع لحكمة ومصلحة، ومنمظاهر هذه الحكمة ان يكون التشريع مرتبطا بالتكوين البشري، وبطبيعة الاوضاعوالتطورات البشرية المعاشة، لذا كان التدرج في التشريع، وكان التغيير والتبديل فيالاحكام. وعند دراسة الاستعمالات وتعريفات (النسخ) يتضح لنا ان للنسخ عندالعلماء استعمالات متعددة، وفي التلخيص الاتي نقرا هذه الاستعمالات والمعاني.

فقد جاء في المنتقى: «وقد كانت لفظة النسخ تعني عند الصحابة والتابعين مطلق التغيرالذي يطرا على بعض الاحكام، سواء رفعها، وحل محلها، او خص ما فيها من عموم،او قيد ما فيها من اطلاق وامثالها من اساليب البيان»(٢٥٢).

«ثم جاء المفسرون فيما بعد ليجعلوا كلمة النسخ تعني مايشمل التخصيص والتقييدوالاستثناء، وترك العمل بالحكم لانتهاء امده، او لتغيير ظرفه، او تبدل موضوعه وغيرها»(٢٥٣).

وهكذا يتضح لنا ان لكلمة النسخ عدة معان استعملت فيها عبر تاريخها، غير انّاستعمالها استقر لدى المتاخرين برفع الحكم واستبداله بحكم آخر.

وقد فصلت مواضع التخصيص والتقييد والاستثناء، والتي فهمها بعض القدماء عبارةعن نسخ جزئي لاختلاط موضوعاتها لديهم، ودرست دراسة مستقلة في مباحث علماصول الفقه، وبذا صار مصطلح النسخ خاصا برفع الحكم الثابت في الشريعة لانتهاءامده وزمانه.

وقد اوضح الشهيد الصدر بقوله الانف الذكر الفرق بين النسخ والتعارض، بان النسخهو التنافي في عالم الثبوت، في حين يكون التعارض تنافيا في عالم الاثبات.

مجالات النسخ:

ويدرس النسخ في مجالين اثنين هما:

١- نسخ اللاحق من الشرائع لما قبلها، كنسخ الشريعة الاسلامية لما سبقها منالشرائع.

٢- نسخ بعض احكام الشريعة الاسلامية لاحكام اخرى والحلول محلها.

ولتوضيح نسخ الرسالة الاسلامية لما سبقها من الرسالات ونلخصه بالاتي:

١- ان العقيدة التي بشر بها الانبياء جميعا، وهي عقيدة التوحيد، وما ارتبط بها من وحيونبوة وبعث وجزاء، وغير ذلك من فروع العقيدة ومسائلها، هي عقيدة واحدة، لاتغيير فيها، ولا نسخ

ولاتبديل، غير ان ما جاء به النبيون، كموسى وعيسى(ع) قدحرف وغير على ايدي المخربين العابثين برسالات اللّه، لذا نجد التفاوت بينها وبين ماجاء به القرآن الكريم.

٢- ان كل ما اخبر اللّه به النبيين من وقائع وحوادث وتعريف بحقائق الوجود وامثالها لانسخ فيه ولا تبديل، لانه اخبار حق عن واقع وحقائق قائمة.

٣- ان الاخلاق والقيم التي جاء بها النبييون، هي قيم اخلاقية واحدة، كالصدق والامانةوالعدل... الخ فلا نسخ فيها ولا تبديل.

٤- ان النسخ واقع في التشريع من العبادات والمعاملات واحكام القضاء...الخ فمانسخته الشريعة الاسلامية من الرسالات الالهية السابقة هو محصور في التشريع.

٥- وكما نسخت الشريعة الاسلامية الشرائع السابقة، فقد وقع النسخ في احكامالشريعة الاسلامية ذاتها لحكمة ومصلحة تتعلق بالتدرج في تطبيق الاحكام، واذافالحكم المنسوخ هو حكم مؤقتقد شرعه المشرع الحكيم الى اجل ليستبدله بغيرهلحكمة ومصلحة تتعلق بالانسان ذاته.

مجالات النسخ في الرسالة الإسلامية:

سبق الحديث عن مجالات النسخ بين الرسالات الالهية، ونعود هنا فنتحدث عنالنسخ في الشريعة الاسلامية ذاتها كما نثبت ايضا ان النسخ في الشريعة الاسلامية لايشمل الا جانب الاحكام ايضا، كما مر سابقا، فلانسخ في العقيدة، وقيم الاخلاق، اومااخبر اللّه سبحانه وتعالى به من وقائع، او مابينه من علوم ومعارف، ولقداختلفعلماءالاسلامفي مايمكن ان ينسخ من القرآن اي ماينسخ من آيات القرآن ومالاينسخ.

ولايضاح هذه المسالة المتنازع عليها بين المسلمين نلخصها بالاتي:

١- ان الاية الكريمة هي عبارة عن نص لفظي يحمل حكما شرعيا او مفهوما عقيديا اومعرفة حقة، وهي قرآن يتلى.

٢- اجمع المسلمون على وقوع نسخ حكم الاية مع بقاء التلاوة اي ان الاية باقية، وهيجزء من القرآن يتلوها المسلمون، غير ان حكمها معطل تعطيلا نهائيا، لاستبداله بغيرهمن الاحكام، كية النجوى: وهي قوله تعالى: (يا ايها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسولفقدموا بين يدي نجواكم صدقة...).

٣- نسخ التلاوة وبقاء الحكم: اختلف المسلمون في وقوع النسخ بهذا المعنى، فذهبالشيعة الامامية الى عدم وقوع هذا الصنف من النسخ وان ما اعتمد عليه في هذاالمجال، ان هو الا اخبار آحاد، لاصحة فيها، اضافة الى ان النسخ لا يثبت باخبار الاحادباجماع المسلمين، فليس

هناك آية نسخت تلاوتها وبقي حكمها. اي ليست هناك آيةكانت جزءا يتلى من القرآن، ثم رفعها اللّه سبحانه، وهي غير موجودة الان بتلاوتها، معبقاء حكمها. وذهب اتباع المذاهب الستة الى جواز ذلك. وقد مر علينا في تعريفالنسخ المتبنى في هذه المدرسة، كما في تعريف الفيومي الذي جاء فيه (...ويكون فياللفظ والحكم او في احداهما).

وقد اشار الراغب الاصفهاني الى هذه النظرية عند تفسيره قوله تعالى: (ما ننسخ منآية او ننسها نات بخير منها) قيل: معناه مانزيل العمل بها، او نحذفها عن قلوبالعباد...) وقد استدل القائلون بهذه النظرية بية الرجم.

ذكر السيوطي ان ابن اشتة: (اخرج في المصاحف عن الليث بن سعد: اول من جمعالقرآن ابو بكر، وكتبه زيد... وان عمر اتي بية الرجم فلم يكتبها، لانه كانوحده)(٢٥٤).

وآية الرجم التي ادعى عمر انها من القرآن، ولم يقبل منه. رويت بوجوه: منها: (اذا زنىالشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من اللّه واللّه عزيز حكيم)(٢٥٥).

٤- نسخ التلاوة والحكم: ولقد اختلف في وقوع هذا الصنف من الاحكام فذهبالشيعة الامامية الى عدم وقوعه في القرآن، وليس هناك من دليل عليه، وذهب بعضعلماء المدرسة السنية الى وقوع ذلك في القرآن، واستدلوا بروايات آحاد على ذلك،منها ان عروة بن الزبير روى عن عائشة انها قالت: (وكانت سورة الاحزاب تقرا فيزمن النبي(ص) مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف، لم نجد منها الا ماهوالان)(٢٥٦).

وقال السيوطي: (النسخ في القرآن ثلاثة اضرب: احدها ما نسخ تلاوته وحكمه معا.قالت عائشة: كان فيما انزل: عشر رضعات معلومات، فنسخن بخمس معلومات،فتوفي رسول اللّه، وهن مما يقران رواه الشيخان...)(٢٥٧).

ادوات النسخ:

اما ادوات النسخ كما ذكرها العلماء، فهي:

١- ان السنة المتواترة والاجماع القطعي الكاشف عن السنة الناسخة ينسخان الحكمالثابت بالقرآن(٢٥٨)، ولكن ليس لهذا الصنف من النسخ مثل واحد في الشريعةالاسلامية، وانما هو مجرد قول بالامكان والجواز، واجمع المسلمون ان النسخ لايثبت بخبر الاحاد.

٢- ان الحكم الثابت بالقرآن ينسخ بية اخرى منه ناظرة الىالحكم المنسوخ ومبينةرفعه، وهذا القسم ايضا لااشكال فيه(٢٥٩).

٣- ان الحكم الثابت بالقرآن ينسخ بية اخرى غير ناظرة الى الحكم السابق ولا مبينةلرفعه، وانما يلتزم بالنسخ لمجرد التنافي بينهما، فيلتزم بان الاية المتاخرة ناسخةلحكم الاية المتقدمة.

والتحقيق ان هذا القسم غير واقع في القرآن(٢٦٠).

وقال السيوطي: متحدثا عن ادوات النسخ و اختلف العلماء، فقيل: لاينسخ القرآن الا بالقرآن،

لقوله تعالى: (ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها) قالوا: ولايكون مثل القرآن، وخيرا الا القرآن.

وقيل: بل ينسخ القرآن بالسنة، لانها ايضا من عند اللّه: قال تعالى: (وما ينطق عنالهوى) وجعل منه آية الوصية الاتية.

والثالث: اذا كانت السنة بامر اللّه تعالى من طريق الوحي نسخت، وان كانتباجتهاد(٢٦١) فلا. حكاه ابن حبيب النيسابوري في تفسيره.

وقال الشافعي: «حيث وقع نسخ القرآن بالسنة، فمعها قرآن عاضد لها وحيث وقع نسخالسنة بالقرآن فمعه سنة معاضدة له، ليتبين توافق القرآن والسنة...»(٢٦٢).

ومن القضايا التي ينبغي ايضاحها عند الحديث عن النسخ هو ماذهب اليه البعض منان الشيعة تؤمن بان الائمة مفوض اليهم نسخ القرآن، وقد سجل الشيخ الطوسي ذلك الزعم ورد عليه قائلا: «وحكى البلخي في كتاب التفسير فقال: قال قوم ليسوا ممن يعتبرون، ولكنهم منالامة على حال: ان الائمة المنصوص عليهم بزعمهم مفوض اليهم نسخ القرآنوتدبيره، وتجاوز بعضهم حتى خرج من الدين بقوله: ان النسخ قد يجوز على وجهالبداء، وهو ان يامر اللّه عزوجل عندهم بالشيء، ولا يبدو له، ثم يبدو له فيغيره، ولايريد في وقت امره به ان يغيره هو، ويبدله وينسخه، لانه عندهم لا يعلم الشي حتىيكون، الا ما يقدره فيعلمه علم تقدير، وتعجرفوا فزعموا ان ما نزل بالمدينة ناسخ لمانزل بمكة»(٢٦٣).

ثم علق الطوسي رادا على ذلك بقوله: «واظن انه عنى بهذا اصحابنا الامامية، لانه ليسفي الامة من يقول بالنص على الائمة(ع) سواهم، فان كان عناهم فجميع ما حكاه عنهم باطل، وكذب عليهم، لانهم لا يجيزون النسخ على احد من الائمة(ع) ولا احد منهميقول بحدوث العلم، وانما يحكى عن بعض من تقدم من شيوخ المعتزلة كالنظاموالجاحظ وغيرهما وذلك باطل، وكذلك لا يقولون: ان المتاخر ينسخ المتقدم الا بالشرط الذي يقوله جميع من اجاز النسخ، وهو ان يكون بينهما تضاد وتناف لا يمكنالجمع بينهما، واما على خلاف ذلك فلا يقوله محصل منهم»(٢٦٤).

واوضح الفقيه الاسلامي الكبير الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر ان النسخمحصور في سنة الرسول(ص) دون ما صدر عن الائمة(ع) جاء في قوله: «وهكذا يتضح ان تغير آراء الشريعة عن طريق النسخ يكون ايضا احد العوامل المستوجبةللتعارض بين الاحاديثوالنصوص، ولكن التعارض على اساس هذا العامل تنحصر دائرته في النصوصالصادرة عن النبي(ص) ولا تعم النصوص الصادرة عن الائمة(ع) لما ثبت في محلهمن انتهاء عصر التشريع بانتهاء عصر النبي(ص) وان الاحاديث الصادرة عن الائمةالمعصومين ليست الا بيانا لما شرعه النبي(ص) من الاحكام وتفاصيلها»(٢٦٥).

وبذا يوضح الشهيد الصدر ان احاديث الائمة ليس لها قوة نسخ احاديثالرسول(ص) فكيف تكون لها قوة نسخ القرآن.

وهكذا يتضح بطلان التهمة الموجهة الى عقيدة الشيعة الامامية في هذه المسالة منخلال ما قرانا من رد الشيخ الطوسي، وتوضيح الشهيد الصدر.

واخيرا نخلص الى:

١- ان النسخ هو عبارة عن رفع الحكم الثابت لانتهاء امده وزمانه.

٢- ان النسخ محصور فقط برفع الحكم مع بقاء التلاوة.

٣- لم تنسخ آية من كتاب اللّه من الناحية الفعلية الا بية اخرى.

٤- ان نسخ الاية لاية اخرى محصور في ان تكون الاية قد جاءت موجهة لنسخ تلكالاية فقط.

اما ان تكون الاية اللاحقة مخالفة للسابقة فلا تعد ناسخة لها.

لذا فقد ابطل بعض المحققين المتاخرين كثيرا مما قيل انها آيات ناسخة، واخرىمنسوخة، ولعل كتاب البيان في تفسير القرآن للسيد ابي القاسم الخوئي شاهد علميمعاصر على هذا الاتجاه.

المحكم والمتشابه

من المباحث الاساسية في علوم القرآن هو مبحث المحكم والمتشابه. والمحكموالمتشابه هما

مصطلحان قرآنيان، استعملهما القرآن الكريم وعرف ان آياته فيهاالمحكم والمتشابه.

وتعني كلمة المحكم في اللغة المتقن الذى لا اضطراب فيه ولا اختلاف. (ومنه حديثصفة القرآن (وهو الذكر الحكيم) اي الحاكم لكم، او هو المحكم الذي منه حديث ابنعباس: قرات المحكم على عهد رسول اللّه، يريد المفصل من القرآن، لانه لم ينسخ منهشيء، وقيل: ما لم يكن متشابها، لانه احكم بيانه بنفسه، ولم يفتقر الى غيره»(٢٦٦).

عرف العلماء المختصون بالتفسير والدراسات القرآنية المحكم والمتشابه بتعاريفمختلفة، وحددوا معناهما، فكانت هناك اتجاهات وآراء في تحديد وفهم معنىالمحكم والمتشابه.

وفيما يلي نورد عددا من تلك التعاريف:

عرف الراغب الاصفهاني المحكم بقوله: (ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولامن حيث المعنى»(٢٦٧).

ونقل الحافظ جلال الدين السيوطي تعاريف عديدة للمحكم والمتشابه نذكر منها: «المحكم ما عرف المراد منه، اما بالظهور، واما بالتاويل، والمتشابه ما استاثر اللّه بعلمه،كقيام الساعة، وخروج الدجال والحروف المقطعة في اوائل السور»(٢٦٨).

وقيل: «المحكم ما لا يحتمل من التاويل الا وجها واحدا، والمتشابه ما احتملاوجها»(٢٦٩).

ونقل عن عبد بن حميد عن الضحاك: «المحكمات ما لم ينسخ منه، والمتشابهات ما قدنسخ»(٢٧٠).

وروي عن عكرمة وقتادة وغيرهما: «ان المحكم الذي يعمل به، والمتشابه الذي يؤمنبه، ولا يعمل به»(٢٧١).

وعرف الفقيه السيد محمد باقر الصدر المحكم والمتشابه بقوله: «فالمحكم من الايات‌ما يدل على مفهوم معين لانجد صعوبة، او ترددا في تجسيد صورته، او تشخيصه فيمصداق معين.

والمتشابه‌ما يدل على مفهوم معين تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي»(٢٧٢).

وعرف الفخر الرازي المحكم والمتشابه بقوله: «...ان اللفظ اما ان يكون نصا، اوظاهرا، او مؤولا، او مشتركا، او مجملا».

اما النص والظاهر فيشتركان في حصول الترجيح الا ان النص راجح مانع عن الغير.والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحكم.

واما المجمل والمؤول فهما مشتركان في ان دلالة اللفظ عليه غير راجحة. وان لم يكنراجحا لكنه غير مرجوح. والمؤول مع انه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليلالمنفرد. فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمتشابه، لان عدم الفهم حاصل فيالقسمين جميعا...»(٢٧٣).

وورد عن الامام جعفر الصادق(ع): «ان القرآن محكم ومتشابه، فاما المحكم فنؤمنبه، ونعمل به، وندين به، واما المتشابه فنؤمن به، ولا نعمل به، وهو قول اللّه عزوجل:(واما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه...)...».

وورد عن ائمة اهل البيت(ع) ايضا: «من رد متشابه القرآن الى محكمه هدي الىصراط

مستقيم»(٢٧٤).

واستعمل القرآن الكريم وصف (المحكم والمتشابه) لكل ما ورد فيه، فهو:

١- وصف آياته كلها بانها محكمة، فقال تعالى: (الر # كتاب اءحكمت آياته...).

ومعنى الاحكام الوارد في هذه الاية وامثالها هو الضبط والاتقان، فلا شيء في آيالقرآن غير محكم في لغته واسلوبه وبيانه ودقة معانيه، وانسجامه مع غيره من الايات،وعدم تناقضه معها.

(لو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

(صنع اللّه الذي اتقن كل شيء...).

٢- وصف آياته كلها بالمتشابه، جاء ذلك بقوله تعالى (اللّه نزل احسن الحديث

كتابامتشابها)(٢٧٥).

ويقصد بالتشابه هنا التماثل في الاتقان والبلاغة والاهداف والاتساق.

٣- وصف القرآن آياته بان فيها المحكم والمتشابه، بالمعنى الاصطلاحي الذي حددهالعلماء. جاء هذا الوصف في قوله تعالى: (هو الذي انزل عليك الكتاب منه آياتمحكمات هن اءم الكتاب واءخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابهمنه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله الا اللّه والراسخون في العلم يقولونآمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب)(٢٧٦).

ومن خلال تعاريف العلماء ودراساتهم للمحكم والمتشابه نعرف دلالة هذه الاية،وماذا يعني المحكم

والمتشابه الواردان فيها؟ ولماذا كانت هناك آيات متشابهة، ولمتكن جميعها محكمة بهذا المعنى؟

لماذا المتشابه في القرآن:

اتضح لنا ان القرآن كله كتاب محكم في المبنى والمعنى، في الشكل والمضمون، سواءما سمي منه محكما، او ما اطلق عليه اسم المتشابه. وعرفنا المقصود بالمتشابه بانهالاي الذي يصعب تشخيص مصداقه في العالم الخارجي، كما يذهب الشهيد الصدر،رضوان اللّه عليه الى ذلك، ومفسرون آخرون. وقد يورد البعض سؤالا لماذا كان المتشابه في القرآن ؟.. اليس القرآن كتاب بيانوهداية للبشرية؟ او ليس المفروض ان يكون كله محكما لاتشابه فيه؟ فهو صادر عنخالق الوجود، وهو القادر العليم.

ويجيب العلماء الباحثون على هذا الاشكال بان الداعي لوجود المتشابه في القرآن، هومستوى قدرة الانسان على فهم الحقائق التي تحدث عنها القرآن في هذه الايات،وادراكها اولا.

وحقيقة القضايا التي تحدث عنها في تلك المواضع ثانيا.

فمثلا تحدث القرآن عن صفات اللّه تعالى، وعن عوالم الغيب المجردة عن الحسيات،وعالم الممكنات المعهود لدى الانسان، فعبر عنها باللفظ الذي يقرب الفهم الى ذهنه،فاستعمل كلمة (العرش) و (الكرسي) و (اليد) و (الغضب) و (المكر) و (السخط) و(الرضا) عند وصفه للخالق

سبحانه، او التعريف بملكه وسلطانه، لتقريب المعانيوالحقائق الخارجية الى ذهن الانسان.

كما ان من اسباب وجود المتشابه في القرآن، هو دعوة العقل البشري الى التحريوالبحث، وبلورة الفهم المختلط، ولاختبار الانسان في عقيدته وايمانه، فهو يواجهالمحكم والمتشابه، وهو مدعو الى فهم المتشابه على ضوء المحكم لاسباب لغوية،كالمشتركات اللفظية، وكاللجوء الى استعمال المجاز.. وثبت ائمة اهل البيت(ع) المنهج السليم لفهم المتشابه، فقد ورد عن الامامالصادق(ع): «من رد متشابه القرآن الى محكمه فقد هدي الى صراط مستقيم».

فمن المحكمات مثلا قوله تعالى: (ليس كمثله شيء...) وقوله تعالى: (لا تدركهالابصار وهو يدرك الابصار).

فيرد المتشابه في صفات اللّه تعالى اليها كقوله تعالى: (يد اللّه فوق ايديهم) وقوله: (وسع كرسيه السماوات والارض). وقوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة). فتفسير كلمة (ناظرة) بالراجيةالمنتظرة للعطاء بعد ردها الى قوله تعالى: (لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار).

ينهي ماقد يتوهمه البعض من التجسيم ورؤية اللّه بالبصر البشري.

٢٤٤- الراغب الاصفهاني ، المفردات في غريب القرآن : كتاب النون .

٢٤٥- الفيومي : المصباح المنير .

٢٤٦- المفردات في غريب القرآن .

٢٤٧- القيومي ، المصباح المنير .

٢٤٨- مقدمة التبيان : ١٢/١ ، دار احياء التراث العربي بيروت .

٢٤٩- السيد محمود الهاشمي ، الجزء ٤ مجلد٧ ، تقرير ابحاث الشهيد السعيد آية اللّهالسيد

محمد باقر الصدر : تعارض الادلة ص٢٩ ٣٠ .

٢٥٠- البيان في تفسير القرآن : ص٢٩٦ .

٢٥١- البيان في تفسير القرآن : ص٢٩٧ .

٢٥٢- علوم القرآن ، المنتقى : ص١٦٩ .

٢٥٣- العتائقي الحلي ، الناسخ والمنسوخ : تحقيق الدكتور الفضلي ، مقدمة المحقق٧ .

٢٥٤- الاتقان : ١٦٧/١ ١٦٨ ، المكتبة العصرية بيروت ط سنة ١٤٠٨ هـ .

٢٥٥- ابو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص٢٢٠ ٢٢١ .

٢٥٦- المصدر السابق .

٢٥٧- الاتقان : ٦٢/١ .

٢٥٨- ابو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن : ص٣٠٥ . منقول من الاصلبتصرف.

٢٥٩- المصدر السابق : ص ٣٠٥ ٣٠٦ .

٢٦٠- المصدر السابق .

٢٦١- من الغريب حقا ان يقال ان الرسول يجتهد من عند نفسه في تشريع ، وهوليس امرا من

اللّه سبحانه .

٢٦٢- الاتقان : ٣/٦٠ .

٢٦٣- الطوسي ، التبيان : المقدمة ، ص١٣ ١٤ .

٢٦٤- المصدر نفسه .

٢٦٥- آية اللّه السيد محمود الهاشمي ، تقريرات بحوث آية اللّه العظمى السيد محمدباقر الصدر

، تعارض الادلة الشرعية : ص٣٠ .

٢٦٦- ابن الاثير ، النهاية في غريب الحديث والاثر : ٤١٩/١ ، مؤسسة اسماعيليان .

٢٦٧- معجم مفردات الفاظ القرآن .

٢٦٨- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٣ .

٢٦٩- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٤ .

٢٧٠- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٥ .

٢٧١- جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٥ .

٢٧٢- علوم القرآن : ص١٣٧ .

٢٧٣- الفخر الرازي ، التفسير الكبير : تفسير سورة آل عمران ، الاية ٧ .

٢٧٤- علوم القرآن عند المفسرين: ٧٤/٣، مكتب الاعلام الاسلامي في الحوزة العلمية/قم.

٢٧٥- سورة الزمر ، الاية ٢٣ .

٢٧٦- سورة آل عمران ، الاية ٧ .

علاقة السنة بالقرآن

السنة النبوية: «هي اسم يطلق على كل ما صدر عن النبي من قول او فعل اوتقرير»(٢٧٧).

ان من الاسس الاعتقادية التي اوضحها القرآن للبشرية ان كل ما صدر عن النبي(ص)هو عن اللّه سبحانه، فسنة الرسول(ص) هي متلقاة من اللّه جل ثناؤه، متلقاة بمعناهادون لفظها، فهي وحي كالقرآن. غير ان القرآن موحى بلفظه ونظمه ومعناه، وهيموحاة بمعناها.

جاء هذا البيان في قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى × ان هو الا وحي يوحى × علمه شديد القوى) وفي قوله تعالى: (ماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وفي قوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول اللّه اسوة حسنة).

وواضح ان الرسول الكريم هو المخاطب بالقرآن، وهو العالم بما حوى من علموشريعة وهدي، والعارف بتفسيره وتاويله، والمكلف ببيان مجملاته وغوامضه، ومانطوت عليه اعماقه وايحاءاته.

نقرا تلك الحقيقة في قوله سبحانه:

(وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم)

(وما نزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي فيه يختلفون).

ولقد قام الرسول(ص) باداء هذه المهمة، وبين للناس ما بلغ به من خلال القولوالفعل والتقرير.

فقد فسر الرسول الكريم محمد(ص) القرآن بقوله وفعله وتقريره.

ولقد استقرا العلماء موارد علاقة السنة بالكتاب وبحثوها بحثا مفصلا في علم اصول الفقه، كجزء

من منهج الاستنباط من الكتاب، وهي:

١- ان السنة تبين مجمل الكتاب.

٢- ان السنة خصصت عموم الكتاب.

٣- ان السنة قيدت مطلق الكتاب.

٤- ان السنة لها قوة نسخ الكتاب.

التطبيق:

١- السنة تبين مجمل الكتاب: من الامور الواضحة لدى الجميع ان الكثير مما جاء فيالقرآن من

الصلاة والزكاة والصوم والحج... الخ جاء مجملا غير مفصل.

وقد قام الرسول الكريم(ص) ببيان تلك المجملات وتفصيلها، فعلم الناس كيفيةالصلاة والصوم

والزكاة والحج بكامل تفاصيلهامن خلال البيان اللفظي والتطبيقي الذي مارسه بسيرته العملية، وبذا بين للامة تفاصيلالقضايا المجملة.

عرف المحقق الحلي المجمل بانه: (ما افاد شيئا من جملة اشياء، هو معين في نفسه، واللفظ لا يعينه»(٢٧٨).

ثم قال: (والضابط فيه: ان كل ما لا يستقل بنفسه في معرفة المراد به فهومجمل)(٢٧٩).

وعرفه الفقيه الراحل الشيخ محمد رضا المظفر بقوله: «عرفوا المجل اصطلاحا: بانه مالم تتضح دلالته، ويقابله المبين»(٢٨٠).

ثم قال: «والمقصود من المجمل على كل حال، ما جهل فيه مراد المتكلم ومقصوده اذاكان لفظا، وما جهل فيه مراد الفاعل ومقصوده اذا كان فعلا...» ومن ثم قال: «ومن هذا البيان نعرف ان المجمل يشمل اللفظ والفعل»

ثم استرسل في الحديث عن الامثلةالمجملة من الايات فاورد قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما) ثم بينان لفظ اليد المقصود قطعها هنا هي من المجملات.

وللايضاح نختصر هذا البيان بين يدي القارئ: قال: «واما من ناحية اليد فان الظاهر ان اللفظ لو خلي ونفسه يستفاد منه ارادة تمام العضو المخصوص، ولكنه غير مراد يقينافي الاية فيتردد بين المراتبالعديدة من الاصابع الى المرفق، لانه يعد فرض عدم ارادة تمام العضو لم تكن ظاهرةفي واحدة من هذه المراتب. فتكون الاية مجملة في نفسها من هذه الناحية. وان

كانتمبينة بالاحاديث عن آل البيت(ع) الكاشفة عن ارادة القطع من اصولالاصابع»(٢٨١).

وهكذا تبين السنة مجمل الكتاب، وتوضح مراد القرآن من اليد في هذه الاية.

٢- ان السنة تخصص عموم الكتاب: عرف المحقق الحلي العام بقوله: «هوالمستغرق لجميع ما يصلح له اذا افاد في الكل فائدة واحدة»(٢٨٢).

ان الاحكام الشرعية والقوانين الاسلامية حسب متعلقاتها والقضايا التي تنظمها تنقسمالى قسمين: احكام عامة، واحكام خاصة. فكثيرا ما تاتي الاحكام بصيغة عامة، ثم ياتيالتخصيص، وهو اخراج مساحة محدودة من تلك المساحة الكلية بتشريع احكامخاصة بها دون بقية افراد ذلك العموم، ونجد ذلك واضحا في الاحكام التي جاء بهاالقرآن الكريم. فقد جاء باحكام عامة تشمل الافراد المتماثلة، ثم اخرج بعض الافرادواستثناها من الحكم العام بحكم آخر.

ووفق منطق التشريع وعرفه فان الخاص يقدم على العام، اذا ماتعارضا. اذ يعتبرالخاص قرينة مفسرة لارادة المشرع، ويخصص القرآن بالقرآن، كما يخصص بالسنة،ومثال ذلك عموم قوله تعالى: (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) فخصصبقوله تعالى: (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).

وتخصيص الكتاب بالسنة هو مما اجمع عليه المسلمون بمختلف مذاهبهموآرائهم.

ومن الامثة على عموم القرآن المخصص بالسنة هو قوله تعالى: (يوصيكم اللّه فياولادكم للذكر مثل حظ الانثيين...)(٢٨٣).

فان هذه الاية شرعت حكما عاما ينص على ان الابناء يرثون الاباء بصورة عامة غير انالسنة النبوية اخرجت القاتل من هذا العموم بقول الرسول الكريم(ص) «القاتل لايرث»(٢٨٤).

وعمم القرآن حكم تحريم الربا بقوله تعالى: (واحل اللّه البيع وحرم الربا) وقامالرسول بتخصيص هذا العموم بقوله(ص): «ليس بيننا وبين اهل حربنا ربا، ناخذمنهم الف الف درهم بدرهم، وناخذ منهم ولا نعطيهم»(٢٨٥).

وهكذا خصصت السنة عموم الكتاب، والامثلة على ذلك كثيرة، وهذا المبحث هو منالمباحث المهمة في علم اصول الفقه، وللعلماء المختصين دراسات تفصيلية فيذلك.

كما يذهب الشيعة الامامية الى تخصيص الكتاب بالسنة، يذهب اصحاب المذاهبالاخرى الى ذلك ايضا، نذكر مثالا على ذلك ما قاله الامدي الحنبلي: (يجوز تخصيصعموم القرآن بالسنة)(٢٨٦).

ويستدل على ذلك بقوله: (وخصوا قوله تعالى (يوصيكم اللّه في اولادكم) بقوله(ص) «لا يرث القاتل، ولا يرث الكافر من المسلم، ولا المسلم منالكافر»(٢٨٧).

التخصيص بخبر الاحاد: قسم العلماء الروايات الصادرة عن الرسول(ص) والائمة(ع) حسب سندها الى رواية آحاد، واخرى متواترة، وانتهوا في هذا التقسيمالى ان المتواتر يفيد القطع في حين خبر الاحاد يفيد الظن، ثم اثيرت مشكلة علمية،وهي هل يمكن ان يخصص عموم القرآن

بالسنة المروية عن طريق الاحاد؟ فالعامیخصص تارة بدليل قطعي، واخرى يرد دليل ظني من السنة يفيد تخصيص العام. وهوخبر الاحاد فهل يخصص العام القرآني بخبر الاحاد الثقة. اختلف العلماء في امكانتخصيص الكتاب بخبر الاحاد.

فذهب المشهور، كما افاد السيد ابو القاسم الخوئي، الى جواز تخصيص عموم الكتاببخبر الاحاد.

وخالف فيه فريق من علماء اهل السنة، فذهب فريق منهم الى منعه مطلقا، وذهبفريق آخر الى اشتراط جواز التخصيص بان يكون العام قد خص بدليل قطعي من قبل،وذهب آخرون الى اشتراط ان يكون العام قد خص بدليل منفصل(٢٨٨).

ومن جملة ما اشكل به على عدم جواز تخصيص العام بخبر الاحاد ان خبر الاحاد ظنيالصدور، والقرآن قطعي الصدور، وان الاخبار تعرض على القرآن، فما لم يوافق منهاالقرآن تسقط حجيته، فكيف تقبل معارضة خبر الاحاد المخصص لعموم القرآن، فيقدم عليه كقرينة مفسرة، فاجاب المجوزون ان التعارض هو بين خبر الاحاد الظني،وبين ظواهر الكتاب، والظواهر هي ظنية بحد ذاتها. وبالتالي فان التعارض يكون بيندلالة الكتاب الظنية الموحي بها ظاهر اللفظ، وبين دليل ظني ثبتت حجيته بدليلقطعي ما لم يكن هناك مانع يمنع من العمل به، وان الدليل المخصص لعموم الكتاب لايعني مخالفة الكتاب، بل هو قرينة لايضاح المعنى المقصود من الدليل العام(٢٨٩).

وذكر السيد ابو القاسم الخوئي وهو من اعاظم علماء الشيعة الامامية المعاصرينوصاحب مدرسة

وآراء اصولية ان ما يذهب اليه المشهور هو المختار (جوازتخصيص عموم الكتاب بخبر

الاحاد)(٢٩٠).

٣- السنة تقيد مطلق الكتاب: عرف الفقيه الاصولي الشهيد الصدر الاطلاق والتقييد بقوله:

«الاطلاق يقابل التقييد، فان تصورت معنى ولاحظت فيه وصفا خاصا او حالةمعينة، كان ذلك

تقييدا، وان تصورته بدون ان تلحظ معه اي وصف او حالة

اخرى كانذلك اطلاقا، فالتقييد اذن هو لحاظ خصوصية زائدة في الطبيعة، والاطلاق عدم

لحاظالخصوصية الزائدة»(٢٩١).

وواضح ان المعاني القرآنية كما ورد بعضها مطلقا، ورد بعضها مقيدا.. وكما تقيد الايةاطلاق آية

اخرى، فان السنة تقيد اطلاق الايات ايضا، كما تخصص عموماتها، والرسول(ص) عندما

يخصص ويقيد انما هو مبين لمحتوى الكتاب، ومبلغ عن اللّه تعالى.

ويبين العلماء المختصون ان خبر الاحاد المستجمع لشرائط الحجية، كما يخصصعموم القرآن،

فانه يقيد مطلقه ايضا، ولا يغير هذا التقييد مما يخالف الكتاب، بل هومما يوضح المراد منه.

ذكر ذلك السيد ابو القاسم الخوئي(رحمهاللّه) في كتابه البيان: «...ان الخبرال#مخصص للكتاب،

او المقيد له، حجة في نفسه، ويلزم العمل به الا حين يبتليبالمعارض»(٢٩٢).

السنة ونسخ القرآن: قد اتضح لنا مما سبق من البحث معنى النسخ في اللغة والاصطلاح،

واتضح ايضا ان القرآن ينسخ بالقرآن. كمابحث العلماء امكانية نسخ القرآن بالسنة، ونريد هنا ان نعرف بهذا الموضوع. وقبلالدخول في التعريف نوضح ان الناسخ لكي يكون حجة يجب ان يكون قطعيا، اذ لاحجة فيه ان كان ظنيا، كما يقول العلماء، والاصل كما يجمع الفقهاء من مختلفالمذاهب، هو عدم النسخ عند الشك في النسخ.

واختلف علماء الاسلام في جواز نسخ القرآن بالسنة، فذهب بعضهم الى امكان نسخالكتاب بالسنة، وذهب آخرون الى عدم جوازه، وفيما يلي ننقل بعضا من هذه الاراء. قال الزركشي: «واختلف في نسخ الكتاب بالسنة»، قال ابن عطية: مذاق الامة علىالجواز، وذلك موجود في قوله(ص): «لا وصية لوارث» وابى الشافعي ذلك. والحجةعليه من قوله في اسقاط الجلد في حد الزنا عن الثيب الذي رجم، فانه لا مسقط لذلكالا السنة، فعل النبي(ص).

قلنا: «اما آية الوصية فقد ذكرنا ان ناسخها القرآن، واما ما نقله عن الشافعي فقد اشتهرذلك لظاهر لفظ ذكره (الرسالة)، وانما مراد الشافعي ان الكتاب والسنة لا يوجدانمختلفين الا ومع احدهما مثله ناسخ له، وهذا تعظيم لقدر الوجهين وابانة تعاضدهماوتوافقهما، وكل من تكلم على هذه المسالة لم يفهم مراده...»(٢٩٣).

وتذهب الشيعة الامامية الى جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة او الاجماع القطعيالكاشف عن صدور النسخ عن المعصوم(ع) وهذا القسم من النسخ لا اشكال فيه عقلاونقلا(٢٩٤).

وجدير ذكره ان المعصوم المقصود هنا هو الرسول الكريم محمد(ص) فالسنة النبويةهي التي لها قوة نسخ القرآن.

وقد مر بنا قول الفقيه الشهيد الصدر: «ان تغيير احكام الشريعة عن طريق النسخ يكونايضا احد العوامل المستوجبة للتعارض بين الاحاديث والنصوص، ولكن التعارضعلى اساس هذا العامل تنحصر دائرته في النصوص الصادرة عن النبي(ص) ولا تعمالنصوص الصادرة عن الائمة(ع)، لما ثبت في محله من انتهاء عصر التشريع بانتهاءعصر النبي(ص) وان الاحاديث الصادرة عن الائمة المعصومين(ع) ليست الا بيانالما شرعه النبي(ص) من الاحكام وتفاصيلها»(٢٩٥).

ومما ينبغي ايضاحه هنا هو ان الشيعة الامامية لم يثبت لديهم حكم قرآني منسوخبصورة فعلية بالسنة النبوية. وانما قالوا بامكان نسخ الكتاب بالسنة فقط، ذلك لان مايفعله الرسول(ص) هو بامر اللّه تعالى وصادر عنه سبحانه.

ملحق

منهج المعرفة في القرآن الكريم

من قراءة وتحليل المعرفة الانسانية، ونظم التفكير، ومناهج البحث في مجال الطبيعةوالفكر

والمجتمع والعقيدة والشريعة التي افرزها الفكر الاسلامي نستنتج ان منهجالبحث والتفكير ومصدر المعرفة وادوات الفهم والاستنباط هي المسؤولة بشكلاساس مسؤولية علمية عن تعدد الاراء والافكار والمفاهيم في اطار المعرفة الاسلاميةبالاضافة الى قصور الباحث العلمي، وهوى النفس، وتدخل العامل الذاتي في البحثالموضوعي، وتلك العوامل مجتمعة هي المسؤولة عن مستوى نتائج البحث من حيثالصحة والاصالة والخصوبة والنضج... الخ.

ونحن عندما ندرس البنية المنهجية للفكر الاسلامي نجد اثر المنهج، واضحا في كلحقل من حقول المعرفة.

لذا نجد اثر هذا المنتظم المنهجي واضحا في بنية المعرفة وصياغة شخصيتها، وتقريرنتائج العمل العقلي فيها. فما من مدرسة فكرية الا وانطلقت من تحديد مصادرالمعرفة اولا، ومن تثبيت اساس للتفكير، ومنهج متميز في البحث وتقرير النتائج ثانيا،وبذلك يتحدد عمقها وتتشخص اصالتها وانتماؤها.

ومن الواضح تاريخيا ان الفكر الاسلامي قد تفاعل مع افكار الشعوب والامم الاخرىمن خلال الاختلاط والفتوحات والترجمة، فتفاعل مع الفكر اليوناني والفارسيوالهندي والصيني واليهودي والمسيحي المحرفين، فافرز هذا التفاعل نتائج انحرافية بالاضافة الى محاولات التحريف الداخلية التي نشات في داخل المجتمع الاسلاميواثر ذلك كله في طريقة التفكير والمناهج المتعددة لدى

كثير من اصحاب النظرياتوالفلسفات والاتجاهات الفكرية في المجتمع الاسلامي، لاسيما اصحاب المناهجالفلسفية والكلامية والسلوكية.

وكما اثر الفكر الاجنبي الوافد اثره في الاتجاه المنهجي، اثر القصور العلمي وضيقالافق الفكري في افراز مناهج وطرق تفكير عقيمة، وغير منتجة احيانا. وقاصرة عنفهم الرسالة، وتطوير الفكر والبحث العلمي، وتنمية العلم والمعرفة في مجالالطبيعة، والمجتمع، والشريعة، ونظم التفكير احيانا اخرى.

وفي خضم هذا الصراع المنهجي، ونظم التفكير، كانت مدرسة ائمة اهل البيت(ع) تواصل جهادها الفكري والسياسي لتثبيت معالم منهج البحث والتفكير، والفهمالاسلامي، للنص والمحتوى، وطريقة الحياة، كما تلقاه ائمة اهل البيت(ع) من كتابالله، وسنة نبيه الكريم(ص)، فاكتسب هذا المنهج تاصيلا قرآنيا، وميزة علمية واقعية،فكان منهجا يحترم العقل، ويلتزم بقواعد الشرع، ويسعى لتطوير الحياة العلميةبشقيها المادي والانساني.

المصادر الأولى للمعرفة الإنسانية:

ومن دراسة وتحليل المعرفة البشرية المعقدة بنظرياتها وقوانينها ومسلماتها، نجدالفكر الاسلامي يرجعها الى مسلمات اساسية قد حصل عليها الفكر الانساني منمصادر اساسية للمعرفة فشكلت

تلك الاسس والمسلمات بنية العقل والتفكيرالمسلم، واعطته ميزته وصفته الخاصة به.

والذي سنعرضه هنا هو رؤية مدرسة اهل البيت(ع) للمعرفة الانسانية، مستفادة منالمنهج القرآني، والذي اختلفت فيه مع مدرسة الاشاعرة التي تبنت معظم المذاهبالفقهية الاسلامية الاخرى آراءها في مجال الفكر والعقيدة، والمسلمات الكبرى فيصياغة العقل المسلم، والتفكير الاسلامي.

وقد بنى الفهم الامامي نظريته في المعرفة على اساس واقعي متسق مع منطق القرآن،فاعطت هذه النظرية العقل دوره الفاعل، كما اعطت المسلمات الواقعية في عالمالوجود قيمتها، واثرها في تفسير حوادث الطبيعة، والنفس، والمجتمع، والتاريخ.

فقد بنى هذا الفكر النظرية الاسلامية في المعرفة على اساس تشخيصه لمصادرالمعرفة الاساسية للادراك البشري الذي انتهى الى الايمان بان الحس هو مصدرالمعرفة الاولى، وان المعلومات الحسية الوافدة على العقل البشري من العالم المحيطبه عن طريق الحواس يتناولها العقل فيدركها، ويستنتج منها، ويبني عليها.

ولنقرا افكار العلا مة الحلي، وهو يثبت اصول المعرفة الانسانية التي ارجعها الىالمعلومات الحسية، قال(رحمهاللّه): «اعلم ان اللّه خلق النفس الانسانية في مبدافطرتها خالية من جميع العلوم بالضرورة، قابلة لها بالضرورة(٢٩٦)، وذلك مشاهد في حال الاطفال. ثم ان اللّه تعالى

خلق للنفس آلات بها يحصل الادراك، وهي القوىالحساسة، فيحس الطفل في اول ولادته بحس ولمس مايدركه من المعلومات، ويميزبواسطة الادراك البصري، على سبيل التدريج بين ابويه وغيرهما وكذلك يتدرج فيالطعوم وباقي المحسوسات الى ادراك مايتعلق بتلك الالات، ثم يزداد تفطنه فيدركبواسطة احساسه بالامور الجزئية، الامور الكلية المشاركة والمباينة، ويعقل الامورالكلية الضرورية بواسطة ادراك المحسوسات الجزئية، ثم اذا استكمل الاستدلالوتفطن بمواضع الجدال، ادرك بواسطة العلوم الضرورية، العلوم الكسبية.

فقد ظهر من هذا ان العلوم الكسبية فرع على العلوم الضرورية الكلية، والعلومالضرورية الكلية فرع على المحسوسات الجزئية، فالمحسوسات اذن هي اصولالاعتقادات، ولا يصح الفرع الا بعد صحة اصله، فالطعن في الاصل طعن فيالفرع...»(٢٩٧).

ويتحدث الشهيد الصدر عن هذه النظرية بشيء من الايضاح والتفصيل فيقول متحدثاعن نظرية الفلاسفة الاسلاميين (نظرية الانتزاع): «وتتلخص هذه النظرية في تقسيم التصورات الذهنية الى قسمين هما: تصوراتاولية، وتصورات ثانوية، فالتصورات الاولية هي الاساس التصوري للذهن البشري،وتتولد هذه التصورات من الاحساس بمحتوياتها بصورة مباشرة، فنحن نتصورالحرارة لاننا ندركها باللمس، ونتصور اللون لاننا ادركناه بالبصر، ونتصور الحلاوةلاننا ادركناها بالذوق، ونتصور الرائحة لاننا ادركناها بالشم.

وهكذا جميع المعاني التي ندركها بحواسنا، فان الاحساس بكل واحد منها هو السببفي تصوره

ووجود فكرة عنه في الذهن البشري، وتتشكل من هذه المعاني القاعدة الاولية للتصور، وينشي الذهن بناء على هذه القاعدة التصورات الثانوية، فيبدا بذلكدور الابتكار والانشاء.

وهو الذي نصطلح عليه بلفظ (الانتزاع) فيولد في الذهن مفاهيم جديدة من تلكالمعاني الاولية. وهذه المعاني الجديدة خارجة عن طاقة الحس، وان كانت مستنبطة ومستخرجة منالمعاني التي يقدمها الحس الى الذهن والفكر.

وهذه النظرية تتسق مع البرهان والتجربة، ويمكنها ان تفسر جميع المفرداتالتصورية تفسيرا متماسكا، فعلى ضوء هذه النظرية نستطيع ان نفهم كيف انبثقتمفاهيم العلة والمعلول والجوهر والعرض والوجود والوحدة في الذهن البشري، انهامفاهيم انتزاعية يبتكرها الذهن على ضوء المعاني المحسوسة، فنحن نحس مثلابغليان الماء حين تبلغ درجة حرارته ماة، وقد يتكرر احساسنا بهاتين الظاهرتينظاهرة الغليان والحرارة آلاف المرات، ولا نحس بعلية الحرارة للغليان مطلقا. وانماالذهن هو الذي ينتزع مفهوم العلية من الظاهرتين اللتين يقدمها الحس الى مجالالتصور»(٢٩٨).

وهكذا تنتهي هذه النظرية الى ان هناك:

١- معارف اولية (حسية).

٢- معارف عقلية انتزاعية(٢٩٩).

واذا كان هذا تحليل ودراسة الفكر الاسلامي وفق الفهم العقلي والفلسفي، فلنبحثعن اصوله القرآنية، وجذوره في معارف الوحي، لنعرف الاصالة والمنهجية القرآنية في هذه النظرية.

واذا شئنا تاصيل النظرية فسنجد انها اسست، واستمدت مقوماتها منالاية الكريمة:

(واللّه اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدةلعلكم تشكرون)(٣٠٠)

فهذه الاية هي الاساس العلمي لهذه النظرية، والمؤيدة للمصادر الحسية للمعرفةولاكتشاف العقل وتشخيصه للاسس الاولى للمعرفة البشرية.

واذن فلنقرا تفاسير هذه الاية كما بينها اساطين الفكر الامامي.

قال الشيخ الطوسي مفسرا هذه الاية: «تفضل عليكم بالحواس الصحيحة التي هيطرق العلم بالمدركات. وجعل لكم قلوبا تفقهون بها، لانها محل المعارف»(٣٠١).

وفسر الشيخ محمد رضا القمي المشهدي، وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجريهذه الاية بقوله: «...اداة تتعلمون فتحسون بمشاعركم جزئيات الاشياء فتدركونها، ثمتتنبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها بتكرير الاحساس حتى تتحصل لكمالعلوم البديهية، وتتمكنوا من تحصيل المعارف الكسبية بالنظر فيها»(٣٠٢).

اما المفسر الفيلسوف العلا مة الطباطبائي فيقول في تفسير هذه الاية: «والاية تؤيدماذهب اليه

علماء النفس من ان لوح النفس خالية عن المعلومات اول تكونها، ثمتنتقش فيها شيئا فشيئا كما قيل وهذا في غير علم النفس بذاتها... ثم قال: وقوله:(وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون...) اشارة الى مبادئ العلمالذي انعم بها على الانسان، فمبدا التصور هو الحس. والعمدة فيه السمع والبصر، وانكان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشم، ومبدا الفكر هو الفؤاد(٣٠٣)»(٣٠٤).

وهكذا تتضح اسس نظرية المعرفة في الفكر الاسلامي كما فهمتها مدرسة اهلالبيت(ع) بانها نظرية مرتكزة على اساس قرآني.

فقد آمنت هذه المدرسة كما صورها العلا مة الحلي والشهيد الصدر وجمع منالمفسرين باصالة المعرفة الحسية لياتي دور العقل فينتزع من المعلومات الجزئيةالحسية، المعارف الضرورية الكلية التي تسلك كاساس للبحث والتفكير في العلومالتحصيلية كلها، وبمختلف مباحثها وموضوعاتها.

وبذا اكتسب منهج البحث الاسلامي قيمته الواقعية والعلمية.

واذا كان المرتكز الاول من مرتكزات نظرية المعرفة هو ان المعارف الحسية هي اصلالمعرفة، وان العقل البشري ينتزع منها المعارف الاخرى، كمبدا العلية الناتج عنعملية الاستقراء في هذا العالم بما يزخر به من الوان الموجودات، فان المرتكز الثانيمن مرتكزات نظرية المعرفة التي آمنت بها مدرسة اهل البيت(ع) واصلتها علىاساس المنهج القرآني هو الايمان بمبدا العلية (العلة الفاعلة

والعلة الغائية) في هذاالوجود باسره، فقد آمنت مدرسة اهل البيت بان العالم الطبيعي والفكري والاجتماعيكله خاضع لقانون السبب والنتيجة، او مبدا العلية.

كما ان الوجود باسره قائم علىاساس مبدا العلة والمعلول.

وان هذا المبدا كما يساهم في تشكيل عقل علمي، فانه يقود العقل ايضا الى البحث عنعلل الوجود، وقانون الفكر والطبيعة والمجتمع، ويضفي على البحث والتفكير الصفةالعلمية والواقعية.

ولا تخفى على المفكر والباحث العلمي قيمة هذه النظرية ونتائجها التطبيقية فياكتشاف قوانين الطبيعة، والربط بين التفكير والمعرفة. والايمان بقوانين علمية تسيرحركة التاريخ والمجتمع، وتنظم السلوك وعلاقات الانسان.

ولنقرا ايضاح الشهيد الصدر لمبدا العلية في عالم الفكر والطبيعة والمجتمع، فقدكتب(رحمهاللّه) يقول: «ان من اوليات مايدركه البشر في حياته الاعتيادية مبدا العليةالقائل ان لكل شيء سببا، وهو من المبادئ العقلية الضرورية...»(٣٠٥).

ثم يسترسل في شرح هذه النظرية فيوضح عددا من المرتكزات والاستنتاجاتالمرتبطة بمبدا العلية التي تسلك كاساس للعلم والمعرفة البشرية بشتى فروعهافيقول: (من الضروري ان نشير الى عدة قوانين من المجموعة الفلسفية للعلية التيرتكز عليها العلم، وهي كما يلي:

١- مبدا العلية القائل: ان لكل حادثة سببا.

٢- قانون الحتمية القائل: ان كل سبب يولد النتيجة الطبيعية بصورة ضرورية، ولايمكن للنتائج ان تنفصل عن اسبابها.

٣- قانون التناسب بين الاسباب والنتائج القائل: ان كل مجموعة متفقة في حقيقتها، منمجاميع الطبيعة يلزم ان تتفق ايضا في الاسباب والنتائج»(٣٠٦).

ثم يوضح قيمة مبدا العلية العلمي فيقول: «مبدا العلية هو الركيزة التي عليها جميعمحاولات الاستدلال، في كل مجالات التفكير الانساني، لان الاستدلال على شيء منالاشياء، يعني ان الدليل اذا كان صحيحا، فهو سبب للعلم بالشيء المستدل عليه، فحينnبرهن على حقيقة من الحقائق بتجربة علمية، او بقانون فلسفي، او باحساس بسيط،انما نحاول بذلك ان يكون البرهان علة للعلم بتلك الحقيقة، فلولا مبدا العليةوالحتمية، لما اءتيح لنا ذلك...»(٣٠٧)

وجدير ذكره ان المذهب الاشعري قد انكر مبدا العلية والسببية في هذا الوجود مسلمابعلة واحدة، وهي اللّه سبحانه. وفسر ظاهرة العلاقة والترابط بين حدوث الاشياءبالعادة ورفض الايمان بمبدا التوالد العلي، ظنا منه ان هذا الايمان يخالف عقيدةالتوحيد، في حين تذهب مدرسة اهل البيت(ع) الى ان الايمان بمبدا تعدد الاسبابوالعلل وتسلسلها دليل آخر على توحيد اللّه وتجلي عظمته، ورجوع الاسباب والعللالى مشيئته وقدرته.

والقرآن الكريم قد ثبت مبدا العلية او السبب والنتيجة كلما تحدث عن الفكر والطبيعةوالمجتمع، بل وعرضها كوحدة سببية يرتبط بعضها ببعض، ويؤثر بعضها في البعضالاخر.

العلية والتفكير:

ففى مجال الفكر تحدث القرآن عن ان التفكير سبب مباشر للمعرفة، وعلة لها. واوضحان العلاقة بين التفكير والمعرفة هي علاقة السبب بالنتيجة.

فقد خاطب العقل والفكر البشري ودعاه الى ان يستقرئ عوالم الطبيعة والحياةليكتشف من خلالها وجود الخالق وعظمة قدرته. كما وجه العقول الى التفكر فيتجارب الامم السابقة ليكتشف العلاقة بين سقوطها واندثار حضارتها وبين الكفروالجريمة والانحراف.

فعلى الصعيد الاول نقرا علية التفكير للعلم والمعرفة، قال تعالى: (ان في خلقالسماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب# الذين يذكرون اللّه قياماوقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلاسبحانك فقنا عذاب النار)(٣٠٨).

وقال تعالى: (اللّه يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضىعليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى ان في ذلك لايات لقومٍيتفكرون)(٣٠٩).

وهكذا يوضح القرآن ان التفكير علة وسبب لانتاج المعرفة، فالتفكير في عالم الطبيعةوالانسان (استقراء مظاهر الوجود) يولد الايمان بوجود الخالق، لذا نجد الرسولالكريم(ع) يؤكد هذه الحقيقة حين قال بعد نزول قوله تعالى: (ان في خلق السماواتوالارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي

الالباب...).

قال: «ويل لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتدبرها» اي لم يكن من اولي الالباب الذينيستنتجون

وجود اللّه من التفكر في خلقه».

وان هذه المعادلة التفكيرية كما هي واضحة تجري على اساس الاختلاف بين موضوعالمقدمة

وموضوع النتيجة (الاختلاف

بين جنس العلة وجنس المعلول).

فالمقدمة هي مايتوفر من معلومات حسية استقرائية عن هذا الوجود لدى الانسانوالنتيجة هي

اكتشاف وجود خالق لهذا العالم.

وهذه المرحلة من التفكير هي المرحلة التي عبر عنها الشهيد السعيد المفكر الاسلاميالكبير

السيد محمد باقر الصدر بمرحلة التوالد الذاتي.

في حين نقرا في كتاب اللّه قدرة التفكير البشري على توليد نتائج علمية جديدة منخلال حركته

بين المعلوم والمجهول، وقدرته على استنباطها وهي المرحلة التي اطلقعليها الشهيد الصدر اسم

مرحلة التوالد الموضوعي للفكر. او المرحلة الاستنباطية منالدليل الاستقرائي.

وقد اوضح المتكلمون الامامية قدرة التفكير على انتاج المعرفة، وان العلاقة بينالتفكير والعلم هي

علاقة السبب والنتيجة:

نذكر من هذه الاراء مااورده ابو اسحاق ابراهيم النوبختي صاحب كتاب (الياقوت)الكلامي الشهير.

قال: «والنظر يولد العلم كسائر الاسباب المولدة لمسبباتها».

ثم علق العلا مة الحلي على هذه الراي قائلا: اقول: اختلف الناس في ذلك، فقالتالمعتزلة: النظر الصحيح يولد العلم.

وقال الاشاعرة: ان العلم يحصل عقيبه لمجرد العادة من فعل اللّه تعالى كالعاديات.

وقال ابو بكر الباقلاني، وامام الحرمين الجويني : «ان العلم مايلزم النظر لزوما واجبا،وان لم يتولد عنه»(٣١٠).

وهكذا نجد المدرسة الامامية قد اختلفت مع المدرسة الاشعرية في علية التفكيرللعلم، واسندت نظريتها الى اصول قرآنية.

قانون العلية وتفسير التاريخ والمجتمع:

وكما طبقت مدرسة اهل البيت مبدا قانون العلية على عالم الفكر والمعرفة طبقتهكذلك في مجال حركة التاريخ والمجتمع فمنت بقانون العلية التاريخية والسننالاجتماعية والاسباب في عالم المجتمع، السياسي والاقتصادي والتحول الاجتماعيوالسلوك الشخصي.

ولنقرا قانون العلية والسببية كما اوضحه القرآن وفهمته هذه المدرسة.

قال تعالى: (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لايلبثون خلافك الا قليلا # سنة

من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا)(٣١١).

وقال تعالى: (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان

عاقبةالمكذبين)(٣١٢).

وقال تعالى: (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لايجدون وليا ولا نصيرا سنة اللّهالتي قد

خلت من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلا)(٣١٣).

وقال تعالى: (ذلك بان اللّه لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروامابانفسهم).

وهكذا يتحدث القرآن عن القانون التاريخي والاجتماعي او السببية الاجتماعيةوالتاريخية، فيربط

بين الكفر باللّه وجرائم الانسان وانهيار الامم والحضاراتوالازمات الاقتصادية والسياسية والاوضاع

النفسية... الخ.

فالقرآن يعرضها وحدة قانونية مترابطة.

وللتعرف على ذلك نقرا بيان الشهيد الصدر(رحمهاللّه) وتفسيره لقانون العليةالتاريخية كما اوضحه

القرآن الكريم بعد ان استعرض عددا من الايات المتحدثة عنهذا القانون قال: (من مجموع هذه

الايات الكريمة يتبلور المفهوم القرآني الذياوضحناه، وهو تاكيد القرآن على ان الساحة التاريخية

لها سنن، ولها ضوابط، كما يكونهناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الاخرى، وهذا المفهوم

القرآني يعتبر فتحاعظيما للقرآن الكريم.. لاننا في حدود مانعلم القرآن اول كتاب عرفه الانسان

اكد علىهذا المفهوم، وكشف عنه، واصر عليه، وقاوم بكل مالديه من وسائل الاقناع

والتفهيم،قاوم النظرة العفوية او النظرة الغبيية الاستسلامية بتفسير الاحداث.

الانسان الاعتيادي كان يفسر احداث التاريخ بوصفها كومة متراكمة من الاحداث،يفسرها على اساس الصدفة تارة، وعلى اساس القضاء والقدر والاستسلام لامر اللّهسبحانه وتعالى.

القرآن قاوم هذه النظرية العفوية، وقاوم هذه النظرة الاستسلامية، ونبه العقل البشريالى ان هذه الساحة لها سنن، ولها قوانين، لكي تستطيع ان تتحكم فيها والا تحكمتهي فيك وانت مغمض العينين افتح عينك على هذه القوانين، افتح عينيك على هذهالسنن لكي تكون انت المتحكم لا لكي تكون هذه السنن هي المتحكمةفيك»(٣١٤).

من ذلك كله فهم العقل الاسلامي قانون العلية في مجاليه الاجتماعي والتاريخي منمنهج القرآن الكريم، وفقا للاتجاه المدرسي القائم على اساس الايمان بقانون العليةفي الطبيعة والفكر والمجتمع الذي قالت به مدرسة ائمة اهل البيت(ع). والايمان بقانون العلية الذي ثبته القرآن الكريم لايعني انفصال الوجود عن خالقه، بلعلى العكس تماما، انما تعمل الانظمة القانونية والحركة السببية في العالم وفق ما اودعاللّه فيها من قانون ونظام يتصف بالعدل والحكمة والمصلحة للخلق.

وجريا على هذا القانون فالانسان يشكل علة فاعلة لسلوكه وفعله الفرديوالاجتماعي، لذا كان مسؤولا عنه ومجازا عليه.

ولقد طبق علماء العقيدة قانون السببية في الحياة الاقتصادية.

ولناخذ لذلك مثلا تطبيقهم لهذا القانون على مستوى الاسعار في السوق التجارية،فذهبوا الى ان قانون العرض والطلب ، والرغبة في الشيء، وتدخل السلطة، والظروفوالاوضاع الطبيعية، كلها عوامل تؤثر في مستوى الاسعار.

قال الشيخ الصدوق محللا قانون الاسعار في السوق: (الغلاء هو الزيادة فياسعار(٣١٥) الاشياء حتى يباع الشيء باكثر مما كان يباع في ذلك الموضع، والرخصهو النقصان في ذلك، فما كان من الرخص والغلاء عن سعة الاشياء وقلتها فان ذلك منالله عزوجل ويجب الرضا بذلك والتسليم له...)(٣١٦).

وهكذا يوضح الشيخ الصدوق قانون العرض والطلب وتاثيره على الاسعار كقانونعلمي ثابت من فعل الله تعالى كقانون الطب والفيزياء، رغم قدرة الانسان على رفعالاسعار وخفضها.

واوضح العلا مة الحلي قانون السببية ودوره في تحديد السعر (الرخص والغلاء) فيالسوق التجارية بسبب التدخل الانساني

فقال: «وقد يحصلان من قبلنا بان يحمل السلطان الناس على بيع تلك السلعة بسعر غالظلما منه، او لاحتكار الناس، او لمنع الطريق خوف الظلمة، او لغير ذلك من الاسبابالمستندة الينا، فيحصل الغلاء، وقد يحمل السلطان الناس على بيع السلعة برخصظلما منه، او يحملهم على بيع

ما في ايديهم من جنس ذلك المتاع فيحصلرخص»(٣١٧).

وهكذا يفسر الفكر الاسلامي مستوى الاسعار في السوق بقانون العرض والطلب،وبتدخل الانسان، فيقتن ماورد في الروايات من ان اللّه هو المسعر، ويوضح دورالانسان السببي في تحديد مستوى السعر في السوق التجارية، انطلاقا من المنهجالقرآني الذي عرض الوجود باءسره ضمن قانون العلية والسببية.

وهكذا نفهم المنهجية العلمية في الفكر الاسلامي، وتاصيله لنظرية المعرفة وتعميمتطبيقها في مجالات الفكر والنفس والطبيعة والمجتمع وفي ما وراء الطبيعة.. وذلك مايكشف الاصالة العلمية في آن واحد، كما يكشف البنية المنهجية المتماسكة في نظريةالمعرفة واثرها في عقيدة الانسان وسلوكه.

الخاتمة

من خلال ما تيسر لنا عرضه، والتعريف به من قضايا تتعلق بالوحي، وبجمع القرآنوصيانته، وفهمه وتفسيره، وما استعرضناه من آراء العلماء، ان حفظ القرآن وتفسيرهوتاويله قضية من اهم قضايا الفكر الاسلامي، فلها الاثر الكبير في فهم المحتوىالقرآني والاستنباط منه، كما لها الاثر

الكبير في عقيدة الانسان المسلم وايمانه بما جاء في هذا الكتاب الالهي المقدس، وبناء مجتمع المسلمين، واشادة حضارتهم.. فالفهمالسليم الكاشف كشفا علميا عن المراد الالهي المستودع في هذا النص مسؤوليةشرعية وامانة علمية.. وانطلاقا من هذه الخصيصة اهتم المسلمون بتفسير القرآن،وتاليف العلوم والمعارف القرآنية، كعلم القراءة والتفسير والتاويل، ثم كان تاسيسمنهج اصول الفقه بلورة علمية، ونظرية متكاملة لتنظيم الفهم القرآني.

فقد بحث العلماء الوضع اللغوي، وتركيب الجمل، والامر والنهي، والعمومواالخصوص، والاطلاق والتقييد، والمجمل والمبين، والمؤول والصريح، والمحكموالمتشابه، والسياق والقرائن، والنسخ، وحجية الظاهر، ودور العقل والاجماع وعلاقةالسنة بالكتاب... الخ، ودرسوا كل هذه الابحاث وغيرها بحثا علميا وتحليليا لفهمالنص القرآني، واكتشاف محتواه.. منطلقين في تاسيس هذه الدراسات من احكامالعقل واللغة، وادلة القرآن والسنة، والعرف المقر من السنة، ليكون منهج فهم القرآنمنهجا علميا، وبنية تفكرية متكاملة، وقائمة على اسس سليمة. كما حددت المرجعيةفي فهم القرآن، ومنهج تفسيره، وفهمه وتاويله، على ضوء الكتاب والسنة.

كل ذلك ليكون التعامل مع القرآن تعاملا علميا لا تتلاعب به الاهواء والذاتية،ومحاولات التفسير العابثة.

جدير بالذكر اننا نواجه الان محاولات من كتاب علمانيين او مشوشي الفهم والمنهجيتجهون الى

محاولة ارباك الثقافة الاسلامية والفهم القرآني من خلال محاولات التقدمبطريقة لفهم القرآن غريبة عن المنهج العلمي، ولا تقود الا الى العبث بمفاهيمه. وقداصدروا كثيرا من الكتب والابحاث لدراسة النص، وتعرضوا للدراسات الاصوليةوعلوم القرآن المتصلة بفهم النص تفسيرا وتاويلا.. كما يتوجه الرد والنقد لهذهالمحاولات التي تدعو الى تغيير منهج فهم القرآن الذي اسسه العلماء لضبط عمليةالفهم والتفسير، كذلك يتوجه النقد الى الفهم الشكلي والتوقفي وتجميد المحتوىالقرآني بفرض العقلية المتوقفة عن الفهم، ومثلها محاولة فرض الذاتية علىالموضوعية القرآنية او فرض ثقافة المفسر ومسلماته الفكرية الغريبة عن روح القرآنعلى النص القرآني. ومحاولة تطويع النص لما يريده المفسر.. ان كل تلك المحاولاتتشكل خطرا على الفهم القرآني، كما يشكل الكثير من التراث التفسيري والروايات‌الضعيفة والمدسوسة خطرا آخر على شروع فهم القرآن وتفسيره تفسيرا حقا، وهوالتفسير المعبر عن مراد اللّه تعالى من كتابه، والكاشف عن الخزين المستودع فينصوصه وروحه العامة.

ان من المسؤوليات الاساسية للعلماء والمفكرين الاسلاميين هو توفير فهم قرآنيسليم والوقوف امام محاولات التحريف، او تحويل القرآن الى شاهد مؤيد لما يريدهاصحاب الاراء والافكار الخارجة عن مراد القرآن..

وكم هو عظيم قول الامام السجاد، علي بن الحسين بن علي بن ابيطالب(ع) الذيرواه الزهري:

«آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك ان تنظر مافيها».

ان كل عصر وجيل ياخذ حاجته من القرآن، فهو لم يات لجيل ولا لعصر، لذا فانالمطلوب منا هو القراءة الواعية والعصرية لهذا القرآن، وفق منهج فهم القرآن، لاغناءالجيل المعاصر، ومعالجة مشاكل الانسان وقضاياه على ضوء الهدي القرآني الخالد، فان في القرآن خزينا فكريا لاينضب، ومحتوى تشريعيا واخلاقيا رائدا لكل جيلوعصر. فليست المشكلة الفكرية التي يعاني منها الجيل المعاصر هي في القرآن، انماالمشكلة في فهم القرآن وفي مضامينه.

٢٧٧- الشهيد الصدر ، دروس في علم اصول الفقه : الحلقة الاولى ص٨٢ .

٢٧٨- معارج الاصول ، المحقق الحلي : ص١٠٥ .

٢٧٩- المصدر السابق : ص١٠٦ .

٢٨٠- اصول الفقه : ١٧٩/١ .

٢٨١- اصول الفقه : ١٧٩/١ ١٨١ .

٢٨٢- معارج الاصول : ص٨١ .

٢٨٣- سورة النساء ، الاية ١١ .

٢٨٤- يراجع المحقق الحلي ، معارج الاصول : ص٩٥ .

٢٨٥- الحر العاملي ، وسائل الشيعة : كتاب التجارة ، ابواب الربا ، باب ٧ الحديث٢.

٢٨٦- الاحكام في اصول الاحكام : ٣٤٧/٢ ، تحقيق د . سيد الجميلي .

٢٨٧- المصدر نفسه : ص٣٤٨ . ذهبت الشيعة الامامية الى ان الكافر لا يرث المسلم ،ويرث المسلم الكافر .

٢٨٨- ذلك لان المخصص تارة يكون متصلا بالعام واخرى منفصلا عنه .

٢٨٩- السيد ابو القاسم الخوئي ، البيان : ص ٤٢٦ .

٢٩٠- البيان في تفسير القرآن : ص٤٢٤ .

٢٩١- الحلقة الثانية : ص ٤٢٠ .

٢٩٢- البيان في تفسير القرآن : ص ٤٢٦ .

٢٩٣- البرهان في علوم القرآن : ٢/٣٧ ٣٨ .

٢٩٤- السيد ابو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص٣٠٥ .

٢٩٥- تعارض الادلة : السيد محمود الهاشمي ، ص٣٠ .

٢٩٦- في نسخة قابلة لها .

٢٩٧- نهج الحق وكشف الصدق : ص٤٠ .

٢٩٨- الشهيد المفكر الاسلامي الكبير محمد باقر الصدر ، فلسفتنا : ص٦٨ .

٢٩٩- المصدر السابق .

٣٠٠- سورة النحل : الاية ٧٨ .

٣٠١- التبيان : تفسير الاية ٧٨ سورة النحل .

٣٠٢- كنز الدقائق وبحر الغرائب : تفسير الاية ٧٨ سورة النحل .

٣٠٣- الفؤاد : القوة المدركة ، قال الراغب الاصفهاني في معجم المفردات : (الفؤادكالقلب ، لكن يقال له فؤاد اذا اعتبر فيه التفؤد . اي التوقد) .

٣٠٤- الميزان في تفسير القرآن : تفسير الاية ٧٨ سورة النحل .

٣٠٥- فلسفتنا : ص٣٠٢ .

٣٠٦- المصدر السابق : ص٣٠٥ .

٣٠٧- المصدر السابق : ص٣٠٨ .

٣٠٨- سورة آل عمران : الاية ١٩١ ١٩٢ .

٣٠٩- سورة الزمر : الاية ٤٢ .

٣١٠- العلا مة الحلي ، انوار الملكوت في شرح الياقوت : ص١٥ .

٣١١- سورة الاسراء : الاية ٧٦ ٧٧ .

٣١٢- سورة آل عمران : الاية ١٣٧ .

٣١٣- سورة الفتح : الاية ٢٣ .

٣١٤- المدرسة القرآنية : ص٧١ ٧٢ .

٣١٥- عرف العلا مة الحلي السعر بانه : تقدير العوض الذي يباع به الشيء ، وليس هوالثمن ، ولا المثمن ، وهو ينقسم الى رخص وغلاء . كشف المراد في شرح تجريدالاعتقاد : ص٣٤٢ .

٣١٦- التوحيد : ص ٣٨٩ ، دار المعرفة بيروت .

٣١٧- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد : ص٣٤٢ .